# الباب الثانى

## صور عن :

# شخصيات

عزيزى القارىء :

فى هذا الباب أحاول أن أعرض عليك عدداً من الشخصيات دون اختيار . ذلك أنه يستحيل علىّ أن أتحدث فى هذا المجال عن كل من يستحق الحديث أو كل من ينبغى عنه الحديث ، وكتب السيرة حفظت لنا مئات الشخصيات العظيمة التى تستحق كل واحدة منها دراسة وافية . ولقد أغمضت عينى وأخذت أسماء من السيرة كيفما اتفق لى ودون مراعاة للعصر ولا للمرتبة ولا للإنتاج ولا للبلد ، وقد بقى من علماء هذه المنطقة التى أكتب عنها أعلام لهم مركز ومقام لم أتحدث عنهم ؛ لعل من أقربهم إلى ذهن القارىء أمثال أبى العباس أحمد بن محمد الذى تعتبر كتبه من أهم المراجع فى الفقه الإباضى ، وتبغورين الملشوطى الذى يعتبر كتابه فى علم الكلام أهم مرجع ، وعليه يعتمد المؤلفون من بعد ، وغيرهما كثير ممن كانت لهم كتب ومؤلفات أو ممن لم يتركوا مؤلفات ولكن دونت أقوالهم وأبحاثهم ورسائلهم من مؤلفات غيرهم ، وممن لم يشتغل بتأليف الكتب ولكنه اشتغل بتأليف الرجال فكون أجيالاً ، وقد كان لبعضهم جموع من الطلبة تتحرك معه

كأنها الجيوش وكان منهم من يقوم فى المجتمعات الإباضية مقام الإمام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقيم الحدود ويرد عدوان المعتدين حتى بالعنف ، ولكن هذا المجال لا يتسع لغير ما قدمنا وعسى أبناءنا البررة أن يسدّوا ، ولو من بعدنا هذا الفراغ ، ويرممون هذا البناء ، ويعيدون ذلك الصرح العظيم على قواعده الصلبة يشعّ منه النور والمعرفة والهداية .

# عاصم السدراتى[1]

نشأ عاصم فى قبيلة سدراته . وكان يتنقل معها بين جبال أوراس تارة فى الشمال وتارة فى الجنوب ، فشب قوى البنية ، قويم الخلق سليم النفس ذكى الفؤاد ، مع شىء من حدة الطبع ، وصلابة الإرادة ، وقوة العـــزم فى تصميم وإقدام .

قرأ القرآن الكريم وعرف مبادىء الإسلام القويمة ، وحضر مجالس العلم وكان يصغى إلى رجال العلم فى الدين ، وهم يتحدثون عما يدعو إليه الإسلام ويطالب المسلمين بالاستمساك به ، وإلى ما زاغ به ناس جرفتهم مطامع الحياة فكان يتحرق شوقاً إلى مزيد من المعرفة ، ولكن الأحوال التى كانت عليها بلاد الجزائر فى ذلك الحين ، وما كانت عليه من ثورات وحروب كانت تثور كل يوم فى كل جهة ، كانت تحول دون استمرار الشباب فى الدراسة ، ولذلك فقد كان عاصم يتألم فى صمت لحرمانه ، ويتأسف فى أسى لوجوده فى تلك الظروف المتقلبة . فلما بلغه ما يدعو إليه سلمة بن سعد ، وما تزدان به المساجد ودور العـــلم فى البصرة من بلاد العراق صمم على السفر ، وكان وهو يعد نفسه يلتمس الرفيق والزميل حتى بلغه خبر ثلاثة فتيان كانوا قد عزموا على مثل ما عزم عليه فاستبشر بذلك وقرر أن ينضم إليهم .

وتكونت بعثة علمية من أربعة طلاب نجباء سافروا من المغرب الإسلامى

---

(١) من علماء القرن الثانى ذكره البارونى فى الطبقة الثالثة .

إلى المشرق الإسلامى ، ليغترفوا العلم من منابعه ، ويأخذوا أصول الدين وفروعه عن أساتذته .

قضى عاصم خمس سنوات فى الدراسة فى معاهد البصرة ، يستمع إلى من وجد من كبار التابعين وتابعى التابعين ، ويحضر مجالسهم . أما أستاذه الذى درس عليه باستمرار ، واقتبس دينه وخلقه منه ، وتكونت شخصيته على يديه فهو الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة . وفى البصرة ربطت أواصر الصداقة بين الطلاب الأفارقة الأربعة ثم أضافت إليهم طالباً آخر جاء إلى البصرة من عمان لمثل ما جاءوا إليه هو الإمام أبو الخطاب عبد الأعلى ابن السمح المعافرى وتعاهد الرفاق الخمسة أن يكون متجههم واحداً أينما ساروا بعد التخرج . فلما أذن لهم شيخهم بالرجوع إلى أهاليهم وأوطانهم لتفقيه أقوامهم ودعوتهم إلى الاستمساك بدين الله . اختاروا بالإجماع أن تكون ليبيا نقطة انطلاق نشاطهم وكان استقرارهم بادىء الأمر فى طرابلس .

اختار عاصم أن لا يتقيد بمسئولية وظيف فى إمامة زميله أبى الخطاب ، وإنما كان يختار لنفسه المجال الحر ، وكان رفاقه يحترمونه ويجيرونه ، ويستجيبون لرغباته فلما شغل أبو الخطاب بالإمامة ، وشغل عبد الرحمن بالولاية ، وشغل أبو درار بالقضاء ، وشغل أبو داوود بالتدريس ، كان الموقف يحتم على عاصم أن يشتغل بالدعوة فى مجال حر غير متقيد ولا مرتبط بمكان . وقد اشتغل عاصم بهذا العمل فكان يتنقل بين المدن والقرى والأحياء الضاربة فى الصحراء ترود الكلأ بمواشيها ، وتنتجع الخصب لأنعامها . يلقى الموعظة الحسنة ويحل المشكلة الناجمة ، ويفصل الخصومة الثائرة بالحكمة والرأى السديد . كانت الخطة التى رسمها لنفسه فى عمله الحر

أن يركب ناقته ويتنقل بين الأحياء يضرب فى البيداء ، يعلم الناس فى مضاربهم ويبين لهم ما يجهلونه من أحكام الدين المتعلقة بهم ، لا سيما أولئك الذين يعيشون عيشة البداوة ولقد اختار أن يشق طريقه من طرابلس على سهل الجفارة ثم يصعد على الجبل يسير معه حتى يبلغ تيغيث قرب نالوت فيقيم هناك أياماً ثم يرتحل على طريق تيفست ثم درج ثم غدامس ، ومن هناك يتجه غرباً ماراً بالقبائل الضاربة فى البادية حتى يبلغ مواطن سدراته فى جبال أوراس . ويقيم هناك ما يقيم ثم يعود أدراجه مع نفس الطريق ماراً بالأحياء الضاربة فى الصحراء ، يقيل هنا ويبيت هناك ، فيتجمع عليه الناس للسؤال والاستفتاء ، وقد اتخذ فى طريقه هذا عدة مصليات كان يقيم فيها أياماً يلقى دروس الوعظ والإرشاد بل ودروس التوجيه والتعليم . أما اختياره لتلك المصليات التى كان يقيم فيها آخذاً لنفسه قسطاً من الراحة فقد كان ينبنى على كثرة السكان فحيثما وجد كثافة من السكان ورغبة فى المعرفة أقام المدة التى تقيحها ظروفه ويقتضيها قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ولم يكن فى تلك المناطق فى ذلك الحين من كبار العلماء من يروى ظمأ الناس فكان يقيم أياماً يتلقى عنه الشباب دروس العلم وبقية الناس الأحكام وحلول المشاكل الدينية ، وقد عرف سكان المنطقة الواقعة بين غدامس وطرابلس عاصماً ، وعرفوا ناقته التى يركبها حتى نسجوا حولها الأقاصيص ولا تزال بعض تلك الأقاصيص تتناولها الشفاه وربما أضاف لها طول الزمن كثيراً من الخيال والخرافة .

وعرفوا مواعيد قدومه ومواعيد سفره التقريبية فكانوا ينتظرونه فى المواعيد المتوقعة . ولعلك لاتجد أحداً من الجيل السابق فى هذه المنطقة يجهل اسم عاصم السدراتى وناقته وبعض القصص المتعلقة به .

وقد بقيت بعض مصلياته وأماكن إقامته إلى اليوم معروفة . بينما اندثر البعض الآخر ونسى مكانه وإن كانت تجمعات طلابه المشـــاهير تعرف بالتقريب إلى اليوم . ومن طلابه تـكونت الطبقة الأولى لـكبار العلمـاء فى الجبل أمثال أيوب بن العبـاس ، وأبى مرداس ، وأبى الحسن الأبدلانى ، ومحمد بن يانس ، وأبى نصر التمصمصى ، وأبى يونس وسيم ، وعبد الخالق الفزانى ، وكثير غيرهم . منهم من استمعوا إليـه فى طفولتهم كعبد الخالق وأبى يونس وسيم ، ومنهم من حضروا عليه فى شـبابهم . وذلك كله حين كان ينتقل بين سـدراته وطرابلس عن طريق غدامس ، فلما قتـل الإمام أبو الخطاب وانتقل الإمام عبد الرحمن إلى الجزائر استقر عاصم فى منطقته من جبال أوراس والتف حوله هنالك جموع غفيرة من المسلمين الذين نقموا على سلوك الحـكام فى الجزائر .

فلما بايع الناس أبا حاتم الملزوزى فى ليبيا استعد عاصم لمناصرته بمن معه ولحق به فى القيروان مع قوة كبيرة جاءت معه من جنوب الجزائر . وفى تلك الوقعة قتل مسموماً فى قناء كما تذكر كتب التاريخ .

بعد قتل عاصم وانتقال الإمامة إلى تاهرت فى الجزائر . اعـتزل الإمام أبو درار القضاء واستقر فى بلده غدامس واشتغل بالتدريس فلحق به طلاب عاصم وأخذوا منه أكثر مما أخذوا عن عاصم ، وأصبحوا ينسبون علومهم إليه ويحسبون من مدرسته . أما أبو داوود القبلى فقداعتزل الحركة السياسية من أول الأمر واستقر فى بلده يلقى دروس العلم . فلما قتل عاصم لحق به جمع من تلاميذ عاصم . ولحق جمع آخر بالإمام عبد الرحمن بن رستم فى تاهرت . ولهـذا لم يذكره المؤرخون فيمن جرت عليهم نسبة الدين لأن طـلابه قد

انتسبوا بعده إلى أحد الأئمة الثلاثة الذين هم أبو درار وأبو داوود وعبد الرحمن .

قال عنه أبو العباس الشماخى فى السير صفحة ١٤١ ما يلى :

« ومن أئمة المغرب ومشاهير أشياخها وقادة أهلها عاصم السدراتى وكان من حملة العلم عن أبى عبيدة مسلم ، وتقدم بعض أخباره مع أبى الخطاب وكان من خيار من صحبه ، واشتهر موته بحصار القيروان بسم فى قناء وهو مع أبى الخطاب كما قال أبو زكرياء[1] أو مع أبى حاتم كما قال ابن سلام . قال الرقيق: عسكره ستة آلاف وكان رحمه الله تعالى جمع العلم والعمل والجهاد والحزم وشدة العزم والرأى . وحيد الدهر وفريد العصر » .

وقال الأستاذ محمد على دبوز فى تاريخ المغرب الكبير صفحة ٧٩ مايلى :

« وكان عاصم السدراتى من قبيلة سدراته ، وكانت مواطنها بالمغرب الآن فى شمال أوراس وجنوبه ، وكان من علماء المغرب الكبار ، ومن أهل التقوى والورع والزهد ، وكان مع هذا فارساً من فرسان المغرب ، وقائداً حربياً من قواده المحنكين » .

ويقول بعد أسطر : « سارع بجيشه إلى أبى حاتم الملزوزى الذى زحف على القيروان فانضم إليه وكان من أعضاد أبى حاتم الكبار ومن قواده العظام ومن ذوى الرأى والحماس » .

---

(١) لاشك أن أبا زكرياء واهم فأغلب مصادر التاريخ تذكر وقوف عاصم مع أبى حاتم ولو قتل مع أبى الخطاب لما ذكر بل إن بعض كتب التاريخ تذكر جميع مواقفه بدقة وعدد جيوشه فى كل حركة من حركاته مما يدل على صحة ما قاله ابن سلام .

# صقر فارس(١)

عبد الرحمن بن رستم الفارسى . هو رجل حقيق بأن يكتب عنه الكاتبون ويرسمه الرسامون ، ويترجم له المترجمون ، إنه شخصية من الشخصيات التى يندر وجودها فى التاريخ وإذا اتيح لعصر من العصور مثل هذه الشخصية كان ذلك طابعاً مميزاً لذلك العصر ، وسمة واضحة له .

إننى ما ذكرت عبد الرحمن بن رستم إلا وذكرت بطلا آخر يشبهه فى بعض المواقف والوجوه لا فى كلها . ذلك هو عبد الرحمن الداخل صقر قريش . على أن صقر قريش قد وجد من عناية التاريخ واحتفال الكتاب به ، ما رسم حوله هالة من المجد والعظمة والفخار . ووجد صقر فارس من اهمال التاريخ وحقد المؤرخين والكتاب عليه وانصرافهم إلى طمس مزاياه وأخباره ما كان حرياً أن يخرجه من حيز الوجود ويطمس آثاره من واقع الحياة .

عندما تغلب بنو العباس على بنى أمية ، وانتزعوا كراسى الحكم منهم ، ثم أصبحوا يتتبعونهم ، ويطاردونهم ويضيقون عليهم . هرب عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس كما هرب كثير من الأمويين . وكان بها من أتباع بنى أمية عدد كبير . كما أن العصبية القبلية كانت هناك مستعرة مستحكمة . وقبل أن يدخل عبد الرحمن إلى الأندلس بعث مولاه بدراً ينظر له الأمر ويمهد له الجو ، ويدعو إليه وجوه الناس وأعيانهم

---

(١) من أئمة القرن الثانى ذكره البارونى فى الطبقة الرابعة وتقدم بعض الحديث عنه فى كتاب ( الاباضية فى تونس ) وتحدثت عنه أغلب كتب التاريخ العام .

ويعد ويمنى . فلما اطمأن إلى نتيجة الحركة وبلغته الأخبار المشجعة دخل إلى الأندلس فوجد الأمر مهيأ والحال مساعداً . فبويع بالخلافة ثم حارب مخالفيه حتى انتصر عليهم ودانت له الأندلس .

فعبد الرحمن الداخل شخصية لامعة من شخصيات الدولة وهو من أسرة تولت الحكم لمدة قرن من الزمان ولا يزال كثير من الناس يحنّ إلى حكمها . ويود لو يعود إليها الأمر والسلطان ثم إنه كما ذكرنا قد مهد الأمر بإرسال مولاه بدر الذى اتصل بأنصار الأمويين فوطأوا له الأكناف ، ومهدوا له السبل ، وأناحوا له الفرصة ، فلما وصل وجد البيعة تنتظره ، وباب الإمارة مفتوحاً فبويع ، ثم إنه استعمل السيف حتى أسكت الألسنة المعارضة . لقد كانت جميع الظروف مساعدة ، وكان الجو ملائماً ، وكانت طبيعة الوضع فى الأندلس تنتظر من يدق الباب ، ومع ذلك فقد اعتبر من أبطال التاريخ وسمى صقر قريش لأنه حين خرج خرج طريداً شريداً وحيداً ليس معه إلا خادمه بدر هذا . وهو صديقه المخلص على الأصح وبعض الخدم أفضل وأصدق من الأقرباء .

هذا هو الإطار العام للقسم الأول من صورة البطولة التى من أجلها أطلق على عبد الرحمن الداخل لقب صقر قريش .

أما عبد الرحمن بن رستم فقد كان أبوه من موالى الفرس وهو أعجمى ومات أبوه وتركه يتيما . صغيراً فقيراً يتبع أمه فى موسم الحج وارتحل مع أمه إلى القيروان حيث نشأ تحت كفالة زوج أمه فى وطن غير وطنه وبين ناس لا علاقة له بهم غير علاقة الإسلام العامة التى تربط كل مسلم بكل مسلم فاعتمد على نفسه ودرس حتى أصبح إماماً فاختاره صديقه أبو الخطاب

عبد الأعلى عاملا على القيروان . فلما تغلب العباسيون على أبى الخطاب كما تغلبوا على الأمويين وقضوا على دولته فى ليبيا كما قضوا على الدولة الأموية وتغلبوا على البلاد التابعة له من البلاد التونسية كانت القيروان ضمن البلدان التى تغلبوا عليها ، وفر عبد الرحمن بن رستم منها مع ولده وخادمه فقط حتى بلغ أواسط الجزائر فاستقر فى جبل سوفجج . وطورد هناك وحوصر فى ذلك الجبل المنيع فترة من الزمن حتى استطاع أن يؤثر على الناس بخلقه ودينه وأن يثقوا فيه ثم دعى إلى إقامة الإمامة فى تاهرت فبويع إماماً وأقام هنالك الدولة الرستمية بعد أن جمع حوله القلوب والسيوف بفضل ما يتحلى به من كفاءات شخصية فقط . فقد بايعه الناس دون أن تمهد له عصبية فقد كان فارسياً بين عرب وبربر ، ولم تسع له قومية فإن قوميته كانت منهارة فى ذلك الحين . ولم يبن عمله على حسب فقد كان حسبه القريب ولاء وعبودية ولم يدع له دعاة لسابقة حكم فى عهد الإسلام فقد نشأ يتيما فى كفالة زوج أمه الذى لا يعرف الناس عنه شيئاً . ولم تسبقه دعوة لأنه خرج والمطاردون على أثره واستقبلته السيوف والرماح لولا اعتصامه بالجبل المنيع .

هذا هو الإطار العام للقسم الأول من صورة البطولة التى من أجلها أطلقت أنا على عبد الرحمن بن رستم لقب صقر فارس . وهذه هى الصورة التى تجاهلها المؤرخون عن عمد فلم يظهروها بالوضوح الكافى .

أما القسم الثانى لصورة الصقرين أو البطلين فهى متشابهة كل التشابه فقد كان الرجلان متعاصرين نالتهما الأحداث من الدولة العباسية الناشئة بسبب انتماء كل واحد منهما إلى دولة سابقة فقد فر صقر قريش ولحق بالأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة . وفر صقر فارس من القيروان واستقر بتاهرت سنة إحدى وأربعين ومائة وتوفى صقر قريش سنة اثنتين وسبعين

ومائة وتوفى صقر فارس سنة إحدى وسبعين ومائة ، وترك الداخل دولة عظمى فى الأندلس . وترك الفارسى إمامة عظمى فى الجزائر . وكانت الدولة التى تركها صقر قريش تمثل الدولة العظيمة فى حضارتها وازدهارها المادى ، وكانت الإمامة التى تركها صقر فارس تمثل الدولة الرشيدة التى وضع أسسها الإسلام . وكل ما هنالك من فرق أن قدم الداخل لم تثبت فى الأندلس إلا بعد أن أريقت دماء وضاعت أراضى من بلاد الإسلام وأن قدم الرستمى ثبتت دون إراقة دماء ولا ضياع بلاد .

قال ابن خلدون فى المجلد الرابع صفحة ٢٦٥ ما يلى :

« وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره . قوى أمر الخلاف واستفحل سلطان القوط وتجهز فرويلة بن الأدفونش ملكهم ، سار إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها ، وملكها من أيديهم » .

إننى كلما تتبعت أحداث التاريخ التى وصل بها صقر قريش إلى الخلافة . وأحداث التاريخ التى وصل بها صقر فارس إلى منصب الإمامة ، زادت فى نظرى عظمة عبد الرحمن بن رستم لا سيما إذا أضفت إلى ذلك أن عبد الرحمن الداخل لم يطمئن على كرسى الإمارة إلا بعد أن أريقت دماء مسلمة زكية ، وضاعت بلاد مسلمة حبيبة ، وثار خلاف عصبى ممقوت لم يهدأ حتى قضى على الدولة الإسلامية فى الأندلس بعد قرون .

وأن عبد الرحمن بن رستم رفعته الأكف والقلوب إلى كرسى الإمارة . وتغلب على الخلاف بالمحبة والعدالة والسلام . وترك سيرة نقية يضرب بها المثل .

# محكم الهوارى[1]

محكم الهوارى هو شخصية من الشخصيات اللامعة التى تتهرب من الظهور وتتباعد عن الأضواء ، ولكن الناس يلاحقونها ويسلطون عليها أنوارهم الكاشفة . نشأ « محكم الهوارى » فى جبال أوراس الجميلة الخصبة ، وترعرع فى تلك الأودية والشعاب فى حرية أهل البادية وسماحة نفوسهم ، وصرامة طباعهم وبعدهم عن اللف والدوران والتعقيد ، وتجافيهم عن النفاق الاجتماعى والمداهنة والملق ، وقد كان محكم منذ صغره ذكياً قويم الخلق ، فتعلم العلم ونبغ فيه ، وأنشأته أسرته المؤمنة على دين وتقوى ، فشب لا يخاف إلا الله ، ولا يرجو غير الله ، عازفاً عن الدنيا مترفعاً عن ملاذها وشهواتها ، مجافياً لعبيدها .

وقد عرفه الناس كما هو بعلمه وبخلقه وبدينه وبشدته فى الحق وتعلقه بالله فاحترموه لهذا الخلق وأحبوه من أجلها .

وإذا كان الناس اليوم ـ ولا سيما من درس شيئاً من العلم ـ يكونون أحرص من غيرهم على استثمار علمهم استثماراً مادياً يبيعون فيه الكرامة من أجل المنصب ، ويبذلون عزة النفس من أجل الثروة ، ويتخلون عن شرف العلم لشرف المهنة ، وقد يبلغ الحرص على الدنيا ببعضهم أن يغضب الله ليرضى الناس فإن أهل العلم فى ذلك الحين كانوا لا يغرهم شىء من زخارف الدنيا ، وإذا كان العلماء اليوم يتسابقون على الحكم ويتهارشون عليه ، ويتحاربون من أجله ، وقد ينحدر بعضهم إلى الكيد والكذب فإن العلماء فى ذلك

---

(١) من علماء القرن الثالث الهجرى ، ذكره الباروني فى الطبقة الخامسة .

الحين كانوا يهربون منه ويفرون فرارهم من الأوبئة والأمراض . وكانوا يقولون : إذا رأيتم العالم يغشى باب السلطان فاتهموه على دينكم .

ومع أن العصر الذى عاش فيه محكم الهوارى كان مملوءاً برجال العلم والصلاح مشحوناً بذوى الدين السوى والخلق الرضى ، غاصاً بأصحاب الفهم والذكاء والألمعية ، ولا سيما تاهرت التى كانت معقلا لهم فإن الناس حينما استشارهم الإمام أفلح فيمن يختارونه للقضاء فى تاهرت أجمعوا على استجلاب هذا الرجل القابع بين جبال أوراس الشاهقة بعيداً عن الضوضاء والصخب وكان يشتغل بنفسه لنفسه قانعاً بحظه من الحياة راضياً بما قسم الله له . حين اختار الناس محكماً لمنصب القضاء ورفعوا رأيهم هذا إلى الإمام ناقشهم الإمام فى اختيارهم هذا وأخبرهم أن فى الدولة كثيراً من الرجال لا يقلون علماً ودينا وذكاء وتحرياً عن محكم ، وهم يعيشون فى وسط الدولة ، ويعرفون كيف يتصرفون مع الناس فى لطف ولباقة ، وأن محكماً فى طبعه الصريح الجاف ، ومواقفه الصامدة ، وقوته فى الحق ، ومعيشته فى حياة البادية قد لا يلائم طبائعهم المتحضرة ، وأذواقهم المرهفة الحساسة ، وسلوكهم الذى تقيده آداب المدينة وأعرافها . ولكن الناس قد اتفقوا عامتهم وخاصتهم على محكم لا يريدون غيره وصمموا على موقفهم وألزموا الإمام بتنفيذ رغبتهم . ولكنهم جميعاً كانوا حائرين يفكرون فى طريقة دعوته إلى الحاضرة : فإنهم لو دعوه باسم الوظيف الجديد كان حرياً أن لا يأتيهم وأن لا يستجيب لطلبهم وتداولوا الرأى مع « الإمام أفلح » وأخيراً اتفقوا أن يكتب أهل الشورى له رسالة يطلبون فيها حضوره المستعجل لأمر مهم وأن يكتب الإمام أيضاً رسالة يدعوه فيها إلى الحضور وقد اتفقوا على فحوى الرسالة .

وإلى القارىء الكريم نص رسالة أهل الشورى قالوا :

« أما بعد ، فإنه نزل بالمسلمين أمر لا غنى بهم عن حضورك وهم منتظرون لقدومك ، ولا يسعك التخلف فيما بينك وبين الله فى اللحوق بهم ، والاجتماع معهم ، ليجمع رأيك ورأيهم على ما فيه صلاح المسلمين » .

وما تسلم محكم الرسالة حتى أخذ كساءته وعصاته وعمد إلى دابة له فركبها ولحق بالقوم فى تاهرت وحضر إلى المسجد ـ فإن المسجد هو المكان الذى تناقش فيه قضايا المسلمين الكبرى والصغرى ـ فسألهم عن الحديث فأخبره الإمام أن قاضى المسلمين قد توفى وأن الناس قد اختاروه ورشحوه لمنصب القضاء وأنه هو ـ الإمام ـ موافق للناس على رغبتهم هذه .

فتمنع محكم وأبدى كثيراً من الأعذار ولكنهم لم يزالوا به حتى قبل وسار فيهم السيرة التى أملها المسلمون وقد سجلت فى فضله وعدله وشدته فى الحق قصص وطرائف ليس هذا مكانها ومن شاء الاطلاع عليها فعليه بكتب التاريخ أمثال رسالة ابن الصغير وسير الشماخى وطبقات الدرجينى وأزهار البارونى ومغرب الدبوز وغيرها أما نحن فى هذا الكتاب فإنما يعنينا فى قصته أمران :

الأول : الرسالة التى بعثت إليه وكانت كافية فى اقناعه بوجوب إجابة الدعوة .

الثانى : الأسباب التى استطاع الإمام والمسلمون أن يقنعوا بها محكماً ليتولى القضاء بعد تمنعه وفراره . فإن هذين الأمرين ـ فيما أرى ـ يعطيان صورة قريبة من الصحة لحالة الأمة ورجالها فى ذلك الحين وما هم عليه من خلق ودين . ذلك لأننا نريد أن نرسم صوراً للحياة التى كانت تحياها الأمة المسلمة أمام أنظار أبنائها فى هذه العصور لعلهم يجدون فى ذلك قدوة حسنة . وأسوة صالحة ، وتاريخاً مشرفاً ينتسبون إليه بفضل الإسلام .

ذلك أن مجتمعنا اليوم قد بعد جداً عن الروح التى كانت تجمع أغلب أبناء الشعب فى ذلك الحين ، وأصبح رجل العلم عندنا اليوم هو نفسه يتكالب على منصب فى الدولة ، يقرع كل الأبواب ، ويتمسح بجميع الأعتاب ويذل ويستجدى حتى للبواب ، ويسعى بجميع الطرق والحيل ويتخذ كل الوسائل والوسائط فإذا تحصل عليه ، اعتبر ذلك مغنماً ، وانتفخ متعاظماً .

بلغنى منذ سنوات أن أحد الرجال المنسوبين إلى العلم ـ ممن يتجرأ فيصلى بالناس ، ويلقى عليهم دروس الوعظ والإرشاد ، لا سيما فى مواسم الانتخاب إذا عزم أن يخوض معركتها ، وكثيراً ما يحرر الخطب الجميلة فى نقد الحكومة والاهتمام بمصالح الناس ، كان ذات ليلة يسهر مع جمع من أصدقائه وفتحوا جهاز الإذاعة على نشرة الأخبار فإذا فيها تأليف وزارة جديدة وإذا المرسوم يشتمل على إسناد وزارة إليه فقام دون أن يشعر ودون أن يخجل حتى من الحاضرين يتلوى راقصاً فى الحجرة بين الحاضرين بكرشه الضخم ـ وعمامته المقورة وهو يلوك إحدى الأغنيات الشائعة بين الطبقات الدنيا من الجماهير . ومنذ تلك الليلة ترك المسجد ودروس الوعظ والإرشاد إلى أن تخلت عنه الوزارة . فرجع إلى بيت الله يعظ الناس حتى يصطاد وظيفة أخرى وقد فعل ولم ينته حتى جمعته الأقدار مع أشكاله فى السيرك البشرى الذى عرض على الجماهير فى سبتمبر ١٩٦٩ ولله فى خلقه شئون .

والنزر اليسير من أصحاب العلم فى هذا العصر يملكون من الشهامة وعزة النفس ما يحملهم على عدم التمسح بالأعتاب . والوقوف على الأبواب ولكنهم إذا علم الواحد منهم أن الدولة تذكرته فاختارته ليشغل منصباً هاماً سارع إليه وهو يكاد يطير من الفرح متدرأ ما وراء ذلك من المكاسب

المادية وقد تكون تلك الخطوة هى الخطوة الأولى من صاحبنا فى طريق تخليه عن مبادئه .

أما أولئك العلماء الأعلام فى ذلك العصر ، فإن المنصب لا يزدهيهم ، وإن المال لا يغريهم وإن نفخة الحكم لا تجد مكانها فى نفوسهم ، لأن نفوسهم أعظم من الدنيا وحظوظها فهم يتهربون منها ، فإذا أرادت الدولة أو الأمة أن تسند إلى أحد منهم عملا احتالت عليه فجاءته من طريق الآخرة .

وهكذا حين تم اختيارهم لحكم الهوارى ليتولى القضاء ، وبعثوا إليه يستدعونه لم يذكروا له أن الأمة اختارته ولا أن الإمام وثق به ولا أن الدنيا أقبلت عليه وإنما أخبروه أن نازلة نزلت بالمسلمين وأنه لا يسعه التخلف عنهم ، فلما بلغه ذلك لم يسعه التخلف ، وركب دابته ولحق بالقوم فى تاهرت ليساعد على النظر فى موضوع النازلة وتخفيف أثرها عليهم . ولما وصل وأخبره القوم أن النازلة إنما هى وفاة قاضى المسلمين ، وأن المسلمين والإمام معهم قد اختاروه ليتولى فى مكان القاضى المتوفى يحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام وآثار السلف الصالحين . استاء الرجل من هذا فإن وفاة رجل وإن كان قاضياً لاتعتبر نازلة مادام فى الأمة من يقوم مقامه ، وامتنع عن قبول المنصب فإن حياته المنعزلة فى جبال أوراس يعمل لنفسه ولآخرته آثر عنده وأحب من النظر فى مشاكل الناس وخصوماتهم .

وحاول الإمام أن يقنعه وحاول مجلس الشورى ولكن دون جدوى ، قالوا له إنهم يحتاجون إلى قاض فى فضله وعلمه ودينه وخلقه يستوى عنده الكبير والصغير والغنى والفقير ليشغل هذا الفراغ ويسد الثلمة فأجابهم بأن البلد مشحون بأهل العلم والفضل والدين وأن عليهم أن يختاروا من المدينة

نفسها من تتوافر فيه الشروط المطلوبة مع معرفته بالناس وطباعهم وسلوكهم وعاداتهم وأساليبهم فى الحياة ، وطال الجدل بينهم ولكنه أصر على موقفه وأصروا على موقفهم . وأخيراً قال أحدهم لرفاقه : إذا لم تأتوه من باب الآخرة وتخوفوه بالله فإنه لن يقبل ، وجلس إليه عدد منهم وقال قائلهم : « أما وقد امتنعت ، فاعلم أنك إن تخلفت عما دعوناك إليه كنت المسئول عن كل دم يراق من غير حله وفرج يوطأ بغير وجهه ، فاتق الله ولا تخالف الإمام والمسلمين فيما دعوك إليه»، وأصاب هذا القول الموضع الحساس من ضمير العالم الكبير إنه يطالبه بتقوى الله ويحمله المسئولية فيما يقع من اختلال بأحكام الإسلام وفكر قليلا ثم لان ولم يلبث أن وافق فإنه كان يهرب من القضاء خوفاً من الله والآن يجب أن يتولاه خوفاً من الله .

قضى محكم الفترة التى تولى فيها القضاء وهو مرضى عنه من المسلمين ومن الإمام يسير فيهم سيرة نزيهة لا يكبر فى عينه أحد حتى يأخذ منه الحق ، ولا يصغر فى عينه أحد حتى يأخذله الحق ، الناس عنده متساوون فى حقوقهم وأقدارهم وشخصياتهم وأملاكهم . وقد كتب المؤرخون عن عدله ونقلوا عنه طرائف فى القضاء النزيه تزيد فى ثروة القضاء الإسلامى العادل ومساواته بين الناس . فرضى الله عن أولئك القوم الذين لا يوجد فى قلوبهم حساب لغير الله .

ولد لمحكم ولد سماه هوداً رباه على الإسلام وأنشأه على تقوى الله ودربه على المعارف الإسلامية منذ صغره فاستمر فى الدراسة حتى أصبح علماً من الأعلام وقد ألف هود عدة كتب اشتهر منها تفسيره للقرآن الكريم على طريقة السلف لا يتعرض فيه للناحية اللغوية ولكنه يقتصر فيه على بيان معانى الآيات الكريمة واستخراج ما تتضمنه من حكم وأحكام .

ويعتبر هـذا التفسير من أوائل التفاسير فى الإسلام وهو بالنسبة إلى المذهب الإباضى يعتبر ثانى تفسير إذ سبقه الإمام عبد الرحمن بن رستم وإن كان تفسير الإمام عبد الرحمن قد ضاع فيما يبدو ولا توجد منه نسخ اللهم إلا إذا احتفظت بها بعض المكتبات ولم يشع خبره أما تفسير هود فتوجد منه عدة نسخ مخطوطة . وعندما اجتمعت بالشيخ سليمان بن الحاج داوود علمت أنه مهتم بطبعه ثم علمت أن الأخ العزيز الشيخ شريفى بالحاج ابن عدون يتولى تحقيقه منذ سنة تقريباً فإذا تمت هذه المخطوة المباركة فإنه يصبح فى المكتبة الإسلامية أثر نفيس من آثار السلف فى القرن الثالث الهجرى ويضاف إليها كنز من كنوزها مضى عليه أحد عشر قرناً وهو مخبوء .

# أبو عبيـــدة الأعرج(١)

يسرنى أن أترك المجال للمؤرخ الكبير ابن الصغير المالكى ليحدثنا عن هذا العالم العظيم قال فى رسالته ما يلى :

« وكان منهم رجل يعرف بأبى عبيدة الأعرج . كلهم مقرون له بالفضل معترفون له بالعلم ، مسلمون له فى الورع ، إذا اختلفوا فى أمر من الفقه أو من الكلام صدروا عن رأيه . وقد رأيت أنا هذا الرجل وجلست إليه فما رأيت فى سود الرؤوس رجلا أخشع منه ، وكان قليل الدخول على أبى اليقظان ولم يكن يجمعه وإياه سوى المسجد الجامع ، فحدثنى أحمد بن بشير قال : ضرب أبو اليقظان سرادقه لحدث أراده ، وبرز بنفسه إلى سرادقه قال : وعلم الناس بخروجه فخرج إليه الفقهاء والقراء ، وضربوا أبنيتهم حول سرادقه ، خلا أبا عبيدة. قال : فبينما الناس ذات يوم جلوس إذ أقبل أبو عبيدة راكباً على دابة . فقال الناس : هذا أبو عبيدة قد أقبل متفقداً الأمير مسلماً عليه . قال : فأعلموا بقدومه أبا اليقظان . فلما دخل عليه أدناه إلى نفسه ، فقال: ما جاء بأبى عبيدة إلينا ؟ متفقداً أو مسلماً أم ماذا ؟ فقال : أصلح الله الأمير . ما جئت مسلماً ولا متفقداً . غير أن جارة لى خرج ولدها البارحة فى طلب معاش له ولها ، فأخذه المحروق صاحب حرسك وحبسه ، فأتتنى الغداة باكية شاكية تسألنى أن أسألك فى إطلاق ولدها ، فأمر بأن يطلق كل من حبس تلك الليلة إجلالا لأبى عبيدة ثم سلم وانصرف فعجب الناس من صدقه وتركه التصنع وإظهاره على لسانه ما أسر فى قلبه .

---

(١) من علماء القرن الثالث ، ذكره البارونى فى الطبقة السادسة .

وكان أبو عبيدة هذا عالماً بالفقه والكلام والرقائق والنحو واللغة وكان مع ديانته حسن الأدب والمروءة . وقد أتيته يوماً أسمع منه كتاب إصلاح الغلط الذى ألفه عبد الله بن مسلم بن قتيبة على أبى عبيدة ، فلما افتتحت قراءته وقلت : لعل ناظراً فى كتابنا هذا ينفر من عنوانه ويستنفر من ترجمته ويربأ بأبى عبيدة عن الزلة . فلم أهمزه ولم أمده فقال لى يربأ بأبى عبيدة بهمز الألف وضمه ، وإنما ذكرت هذا الحرف لأدل على براعته فى اللغة فلما قرأت من الكتاب مثل ورقة أو يزيد، أتاه قوم فقالوا : يا أبا عبيدة شهادة يأجرك الله عليها ، فأخذ نعله وعصاه ثم قام مع القوم . فلما كان اليوم الثانى أتيته فلما قرأت مثل ما قرأت بالأمس أتاه قوم فقالوا : يا أبا عبيدة شهادة يأجرك الله عليها ففعل مثل ما فعل بالأمس فقمت معه وقلت له : أصلحك الله إن لى فى الرهادنة دكاناً أبيع فيه وأشترى ، وأتركه وآتى إليك فيأتيك الناس فتشتغل عنى فلا أنا فى دكانى ، ولا أنا فى مقابلة كتابى . فسكت ، فلما كان بالغداة أتيته فلما قرأت بعض جزئى أتاه ناس فسألوه كما سألوه قبل هذا فقال : إن هذا اليوم لهذا الفتى فإن آثركم على نفسه وأذن لى سرت معكم . فلما رأيت ذلك قلت: له يا سيدى لا كل هذا . فسر إذا شئت أو أقم .

وإنما ذكرت هذا لأدل على مروءته وحسن أدبه ، وكان المغرب كله مفتوناً بهذا الرجل حتى أن من كان من الإباضية بسجلماسة يبعثون إليه بزكاتهم يصرفها حيث يشاء » .

هذا ما قاله ابن الصغير عن أبى عبيدة الأعرج وهو كاف لتصوير تلك الشخصية العظيمة التى تحترمها الدولة وتتطامن لها .

# أبو يوسف الطرفى (١)

هو أبو يعقوب يوسف بن سيلوس السدراتى اشتهر بالطرفى . أخذ العلم عن الأئمة فى تاهرت ثم ارتحل إلى وارجلان وفيها استقر وأقام وطاب له المقام . فكان فيها علماً يهتدى به ، ومناراً يستضاء بنوره .

بلغ من العلم مبلغاً أهله لأن يكون مرجعاً . وأن يكون فى الدين قدوة . وأن يكون فى الخلق مثالا يحتذى ، ومثلا يضربه الناس بعضهم لبعض . وكان إلى هذه المرتبة الشامخة من الدين والعلم والخلق ـ مربياً يحسن التربية ، ومرشداً يحسن التوجيه . فهم أسلوب الإسلام العملى فى إرشاد الناس إلى ما يصلحهم فى الدنيا والآخرة فعمل به .

جاء إلى وارجلان رجل من سكان جبل دمر ، وقصد إلى أبى يوسف وأخبره أنه صاحب عيال ، وأنه فقير لا يملك ما يقيم به أودهم ، ويرجوه مساعدة مادية يعود بها إلى عياله وأطفاله ، وكان فى إمكان أبى يوسف أن يمد الرجل بمساعدة تكفيه وتكفى عياله لمدة أسبوع أو شهر أو أكثر من ذلك أو أقل . وحتى إذا كان لا يستطيع هذا من ماله الخاص فإنه يستطيع أن يجمع له من أصحاب الخير والفضل ما يقر به عيناً ، ويرجع إلى أهله فرحاً مسروراً ولكن أبا يوسف كان لا يطمئن إلى هذه النجدة المؤقتة فإنها سرعان ما تنفد وسرعان ما يبقى الرجل فى حالة فقر بائس فيعود إلى طلب الإحسان من الناس ثم يتخذ ذلك عادة فيخسر عزة نفسه وكرامتها .

---

(١) من علماء القرن الثالث الهجرى ، ذكره البارونى فى الطبقة السادسة .

وعلاج أمثال هذه الشئون الاجتماعية يجب أن يستوحيه المؤمن من روح الإسلام وأن يعود فيه إلى سيرة النبي عليه الصلاة والسلام فإنه واجد هناك خير الحلول .

نظر أبو يوسف إلى الرجل فوجده قوياً سليما يستطيع العمل ولكنه لا يجد العمل ولا يعرف كيف يشتغل ، فأمره أن يذهب إلى السوق فينظر أرخص الأشياء فيها ثم يعود ويخبره وذهب الرجل إلى السوق وطاف بين أكداس البضائع المطروحة وقطعان الماشية المعروضة ثم رجع إلى الشيخ فأخبره أنه لم يجد أرخص من الإبل فى هذا الموسم من أواخر الشتاء فقال له الشيخ : عندى أربعة وعشرون ديناراً وديعة لأحد الناس — خذها على سبيل القرض واذهب واشتر بها جمالا ثم أحسن رعايتها وعلفها حتى إذا سمنت عد إلىّ . وأخذ الرجل برأى أبى يوسف فأخذ منه الدنانير ثم ذهب إلى السوق فاشترى بها ثلاثة جمال ذهب بها إلى بعض الأودية الخصبة ولم يمض عليها زمن طويل حتى حسن حالها وسمنت فرجع إلى أبى يوسف يخبره . فأمره أبو يوسف أن يأخذ اثنين منها إلى السوق ليبيعها وهكذا رد من ثمنها مبلغ الوديعة واشترى بالباقى منه بضاعة حملها على الثالث ورجع إلى أهله موفوراً بعد شهور قليلة يحمل معه على الجمل الثالث خيرات له ولأهله .

يقص المؤرخون هذا الحادث من تاريخ أبى يوسف متعجبين من تفكيره وسداد تصرفه وحسن تدبيره . غافلين أن هذا العالم العامل لم يأت بشىء من عنده وإنما هو قبس من سيرة الرسول ﷺ وطريقته فى معالجة المشاكل المشابهة .

عندما ترجم أبو العباس الدرجينى لأبى يوسف الطرفى ذكر القصة

السابقة ثم ناقشها على ضوء الأحكام الفقهية ، وهل يصح للمؤمن أن يتصرف فى وديعة توضع عنده دون إذن صاحبها . وقال : إن من عادة علماء السلف إذا وضعت عند أحدهم أمانة أن يستأذن صاحبها فى التصرف فيها بغير عدوان إذا احتاج إليها وإن أبا يوسف لا بد وأن يكون قد جرى على هذا السنن فاستأذن رب الوديعة فى الاستفادة منها إذا لزم الأمر . فلما جاءه الدمرى تصرف . هذه خلاصة مناقشة أبى العباس للموضوع ، ويبدو لى أن أبا يوسف كان فى إمكانه أن يساعد الرجل بقرض من ماله الخاص أو أن يجمع له من أصحاب الخير أو أن يقرض له من شخص ما قرضاً ولكنه فضل غير هذه الطرق جميعها . فضل أن يتصرف فى الوديعة وأن يحرص على ذكر الوديعة وهو يسلم المال للرجل حتى لا تحدثه نفسه بمطمع . وحتى يعلم أن إرجاعها يجب أن يكون سريعاً وذلك يحمل الدمرى على الجد والمثابرة فى العمل . أما الوديعة وقد تصرف فيها فهو ضامن لها — ولا شك — لصاحبها لو ضاعت أو وقع فيها شىء ما .

كان أبو يوسف يقوم مقام القاضى فى وارجلان دون أن يسند إليه ذلك أحد ولقد كانت شهرته العلمية وحرصه على تنفيذ أحكام الله ، ونزاهته ، صفات جديرة أن تترك الناس يفزعون إليه بمشاكلهم وخصوماتهم ، ثم هم يرضون بما يراه ويحكم به ، ولم يكن يتقاضى عن عمله هذا شيئاً فقد كان يقوم به لوجه الله تعالى .

أما طريق رزقه فهو طريق جميع المسلمين ، رزقه يأتيه من عمل يديه وعرق جبينه ، وكان يجمع إلى مهمة القضاء ، ودروس الوعظ وتعليم الشباب والدراسة المستمرة . كان يجمع إلى هذه الأعباء عبء الجد والعمل من أجل الحياة وكسب موارد الرزق الحلال .

وعندما مرض مرض الوفاة كان ولده يتردد عليه ويطلب منه النصيحة الأخيرة وكان أبو يوسف يمتنع ويتأبى ويقول لولده : « ما أراك تقبل » ولكن الولد حرص ، فلما علم منه صدق الطلب وصحة المقصد قال له : « لا يكن ندبك الناس إلى الخير أوكد من ندبك نفسك ، ولا يكن غيرك أسبق إلى الحرث منك ، وكن للناس كالميزان وكالليل للأدران وكالسماء للماء » .

درس عليه عدد لا يحصى من المتعلمين وتخرج على يده عدد جم من فطاحل العلماء ولعل من أبرزهم وأكثرهم اقتداء به العلامة « أبو صالح جنون بن يمويان » ولعل خير ما نختم به هذا الفصل ما قاله عنه أبو العباس الدرجيني :

« العالم الفقيه ، الفاطن النبيه ، اليقظ الذكي ، الورع الزكي ، ذو الجهادين الأكبر والأصغر ، والاجتهادين المعلّى والدفتر » ، وقال عنه في آخر الفصل « وكان منتهى الفُقيا في وارجلان » .

# أبو باديس أبخت بن باديس[1]

أبو باديس أبخت بن باديس بن زيدان اليكشفي مؤمن من المؤمنين الذين أكرمهم الله بصحة الدين ، ووسع عليهم فى العلم والمال ، فقد كان مؤمناً تقياً موصول القلب بالله فى جميع أحواله وكان عالماً غزير العلم ، حريصاً على العمل بما يعلم ، وكان وافر الثروة يملك أعداداً لا حصر لها من قطعان البقر والإبل والغنم ، يتولى تربيتها ورعايتها فى خصوص بونة الخضراء الخصبة ، وكان يشرف بنفسه على تربيتها وتنميتها ، وكان يعطى منها فى سبيل الخير دون حساب وإذا كان الكرماء يعطون بالآحاد فقد كان أبو باديس يدفع بالعشرات ويهب بالقطيع . ويرسل منها إلى من يعرف فيه الاحتياج إليها ولو بعد مكانه ، ولا شرط له على هذه العطايا إلا أن يكون أصحابها من المتقين لا يستعينون بماله على معصية الله .

ولد أبو باديس فى أواخر الدولة الرستمية ربما فى السنوات الأخيرة من خلافة الإمام أبى اليقظان . ورأى فيها أمثلة للحكم النظيف للأمة الإسلامية فلما ذهبت تلك الدولة التى تسير بمنهاج الإسلام . وجاءت بعدها الدولة العبيدية فى اندفاعتها الأولى لا يهمها ما تحطمه من أجل بناء سلطانها وكان يعيش بين ما يرتكبه حكامها من عسف وظلم وجور . كان يتمنى أن تقوم دولة أخرى تسير بسيرة الإسلام وكان يتعهد بينه وبين نفسه أن يقدم إليها كل ما بين يديه من مساعدة ، ولهذا فقد حرص على أن يضاعف ثروته ليضعها فى يدى الدولة التى كان يرجو أن تقوم لتقوم بأمر الله فى الناس . وكان يملك مع تلك القطعان من الأنعام رعائل من الخيل ، يتخيرها ويعرف أنسابها ويشرف

---

(١) من علماء القرن الثالث ، ذكره البارونى فى الطبقة السادسة .

على تربيتها ويعدها للكفاح حسب الأمل الذى لم ينطفىء فى قلبه أبداً وكان ينتظر ذلك اليوم الذى يتحقق فيه أمله فيدفع تلك الخيول وما وراءها من ثروة لله وفى سبيل الله .

وكان يعرف أصول تلك الخيل وأجناسها ومقدار عتقها ، وكان يحبها ويتفقدها فلما تقدمت به السن وكف بصره وعجز عن مزاولة الفروسية بقى يحن إلى الخيل وركوبها وتلمسها . كما لم يتحطم أمله فى قيام دولة عادلة يقوم بها مؤمنون مخلصون ، وكان عجزه عن الرعاية المباشرة لخيوله العتاق لم يمنعه من الاهتمام بها وتفقد أحوالها والسؤال عنها وعن نتاجها ، وكان أبناؤه وأحفاده وخدمه يقومون له بكل ما يطلب من ذلك . جاءه مرة حفيده محمد بن عبد الله بن أبخت يقود إليه مهراً صغيراً ويخبره أنه نتاج الفرس الفلانية . وكانت من الأفراس التى يحبها ويعتز بها وبأصلها فأخذ الشيخ بمقود المهر وتلمس أعضاءه ليرى بيديه ما كان يراه بعينيه وربت على ظهره وعنقه ثم قال لحفيده : أدبه وأحسن رعايته وتربيته تأخذ فيه ألف دينار . ثم جاءه مرة أخرى بمهر آخر وأخبره عن أمه وأصله فتلمسه الشيخ كما تلمس الأول ثم قال لحفيده : إن أحسنت تربيته تأخذ فيه خمسمائة دينار . وقد اهتم الفتى بالمهرين وتربيتهما واهتم بالفروسية وأتقنها حتى أصبح من أفذاذ الفرسان فى المغرب. وكان لوصية الشيخ وأسلوبه فى التربية ـ تربية الإنسان وتربية الحيوان ـ أثر قوى فى توجيه الفتى فقد سار على نفس المسلك من تربية المواشى وتنميته لثروة وإنفاقها فى سبيل الخير . كما كان حريصاً على تربية الخيل وتخير أصولها وتوفير عددها لعل دولة عادلة تقوم فتحتاج إليها . ولكن هذا الأمل لم يتحقق لا فى حياة الشيخ ولا فى حياة حفيده ولا فى حياة ولده .

أصبح محمد حفيد أبى باديس فارساً لامعاً ، وغنياً مرموقاً ، وزعيما

محبوباً ينظر إليه الناس فى خوص بونة بالإجلال ، ويستمعون إلى أمره بتقدير واحترام ، ويطيعونه فيما يشير إليه طاعة المحبة والولاء . وقد اعتقد كثير من الناس أنه ربما دعا إلى ثورة أو تزعم حركة ، أو طالب لنفسه بالحكم . ولكنه لم يرد أن يتجه هذا الاتجاه . على أن أسلوب الحكم قد تغير فى الدولة العبيدية ؛ فقد وصل الحكم إلى المعز بن باديس وأظهر المعز سخطاً على أسلافه ـ وإن لم يكن خيراً منهم ـ وغير مذهبه فأصبح أشعرياً بعد أن كان شيعياً فرأى أبو عبد الله محمد أن يقيم علائق الود مع الحاكم الجديد ، ولعله يستطيع أن يعود بالحكم إلى النهج الإسلامى فيتحقق المطلوب .

فوفد عليه وقد أخذ معه هدية قيمة فيها المهران السابقان وقد أصبحا جوادين مطهمين تنحبس عندها العين ويبتهج الخاطر . وقدم الهدية إلى الملك المعز فسر بها وتقبلها وشكر صاحبها . وكان سرور المعز بوفـــود أبى عبد الله أعظم من سروره بالهدية فقد كان يتوقع منه ما يتوقعه كل حاكم ظالم من كل رجل عظيم محبوب لا يتزلف إليه ولا يتقرب . فلما رأى هـــذه الخطوة من هذا الزعيم أمن جانباً مما كان يُقضّ مضجعه . وتولى الفتى بعد أن ودع الملك ليعود إلى بلاده وقد اقتنع أكثر من ذى قبل على وجوب المهادنة وعدم تعريض الناس لفتن لا يرجى منها خير للإسلام والمسلمين . غير أن هذا الموقف البسيط الذى أرضى الملك وطمأنه لم يرض الحاشية فما خرج أبو عبد الله حتى سارعت الحاشية إلى النيل منه وتحريض الملك على إزالته من الطريق ، وقالوا له : إن الرجل صاحب ثروة ضخمة وهو فارس شجاع شهير ، مسموع الكلمة محبوب من الناس ، يقوم فى مزاته مقام الزعيم ، ولو دعا الإباضية إلى أى عمل لاستجابوا له جميعاً ، ولو حدثته نفسه بالثورة عليك لسبب لك متاعباً جمة أنت فى غنى عنها ، والرأى ـ وقد وقع بين يديك أن تتخلص منه . قال المعز : كيف يمكن أن أقتل الرجل

وقد عرف القاصى والدانى أننى رحمت به وقبلت هـــديته ، وجازيته بالإحسان . إن الغدر فى مثل هذا المقام يضر بنا أكثر من أى عمل يقوم به هذا الرجل . غير أن مدبرى المكائد لا تعييهم الحيل ، واستطاعوا أن يدبروا مكيدة اقتنع المعز بوجاهتها . فبعث وراء الفتى يدعوه إليه ، وعندما وصله أعوان الملك يبلغونه طلب الملك له عرف أنه دعى إلى مكيدة ولـكنه ماذا عساه يصنع غير أن يسير فى الطريق إلى نهايتها ؟ ورجع حتى وقف بين يدى المعز وانتظر ما تأتى به الأقدار ، فأظهر المعز الحفاوة مرة أخرى وأبدى له التعظيم والإجـــلال ثم قال له : إنـكم فتيان مزاتة موصوفون بالفروسية والبراعة فى ركوب الخيل ويدل على ذلك عنايتك بتربية الخيل وإعدادها ، وقد خطر لى أن تعرض علينا ألواناً من الفروسية ، وفى حظيرتنا أسد يمكنك أن تلاعبه على أنه يجب أن تعرف أن الأسد ضار قد يضر بك فخذ حذرك منه واعرف كيف تروغ منه أو تقتله وأنت مجرد من السلاح . وعرف الفتى الغرض من كل هذا وأنه محكوم عليه بالإعدام ، ولـكن بهذه الخدعة الدنيئة ، ولم يرد أن يتنازل عن اعتزازه واعتداده بنفسه ، ولا أن يظهر الضعف لهؤلاء القوم الذين أحسن بهم الظن فقال له ـ مزهواً : لبيك . وقدم له الفرس الذى جاء به هدية للملك وأدخل إلى خان السبع مجرداً من السلاح وأطلق عليه الأسد الضارى الذى كان المعز يستعمله بمثابة آلة الإعدام لمن يحكم عليه بذلك . وقد مرد الوحش على الولوغ فى الدماء البشرية واعتاد على افتراس الناس فى ذلك الخان وأصبح من الممتع له أن يطلق فى وسط الحظيرة ثم يلقى إليه بفريسة بشرية يمارس معها طبيعة الصيد الـكامنة فيه ثم يلتهمها بعد دقائق . وحينما رأى رجلا على فرس يقتحم عليه الحظيرة استعد لأن يمارس طبيعته الحيوانية فى الصيد وإن يكن المنظر

قد تغير عليه وسبب له شيئاً قليلا من الارتباك، فقد كان يلقى إليه الرجل مجرداً أما الآن فها قد ألقى إليه رجل على فرس وعلى كل حال فلا أهمية لذلك . بدل الفريسة الواحدة فريستان .

وبدأت المعركة الرهيبة بين الوحش المفترس القوى وبين الفارس الشجاع الجرىء وطالت المعركة بين الأسد المسلح بسلاح الطبيعة من مخلب وناب وبين الفارس الذى جردته اليد الماكرة حتى من السكين والسوط ، ولكن تلك اليد لم تتمكن من تجريد الفارس من سلاح الشجاعة وحضور الذهن فى أحرج المواقف وسرعة الفر والإفلات .

كان المعز أمر أن تعد له ولحاشيته منصة عالية حول الحظيرة ، ففرش عليها المفارش الوثيرة وتحول بينها وبين انطلاق الوحش إليها قضبان متينة من الحديد ، حتى يتمكنوا من الاستمتاع بالنظر إلى الأسد الخطر وهو يلغ فى دماء الفتى المزاتى ويلتهم عضلاته . وكم شهد أولئك القوم وثبات الأسد الضارى على الأجسام البشرية البائسة التى يرمى بها إليه ظلم الإنسان للإنسان وكانوا هذه المرة يتابعون المعركة بعيون زائغة وحركات قلقة . فلم يحدث فى تاريخ حظيرة الموت أن تلكأت آلة الإعدام عن مهمتها ولم يحدث لأسدهم مثل هذا العنت فى المقاومة ففى اللحظة التى ينتظرون وقوع المخالب والأنياب على الفارس أو الفرس بعد وثبة هائلة من الوحش يجدون أن الفرس قد راغ بفارسه بعيداً ووقع الأسد على الأرض الفارغة يسف التراب ولقيت مخالبه ضربة قاسية من الأرض الصلبة وفى زمجرة الغضب والحقد من الخيبة يرى الفارس يعود إليه يحتك به من جديد ويعيد الأسد الكرة وقد ظهر أنه لن يفلت الفريسة هذه المرة ولكن الحركة تتكرر وتذهب الوثبة سدى حتى

كَلَّ الأسد من الوثوب وأصبح يطارد الفريسة مطاردة لعله يلحق بها وهذا ما كان يرجوه الفارس الماهر وعندما يكاد الأسد يصل إلى القدمين الخلفيتين للفرس يهمز الفارس فرسه بالأشابير همزة قوية فيرمح الفرس الأسد رمحة قوية بنعاله الحديدية فتقع عليه الضربة إلى أن صادفت إحدى الضربات موضعاً قاتلا من رأس الأسد فوقع . وكان أغرب ماختمت به هذه المأساة التى صارت ملهاة وطالت أكثر مما قدر لها أن تمكن الفتى الأعزل من قتل الأسد وسلم الفارس والفرس وقد اختار أبو العباس الدرجينى وهو يصف قتل الأسد أن يقول : « فهوى ميتاً كالنخلة السحوق والحمد لله » تغلب هذا الفتى على الأسد وقد تغلب فتيان من قبله على أسود فى مثل هذه المواقف بل استطاع بعضهم أن يقتل أسداً بالسوط فقط دون سلاح أو فرس.وقد خلدت بعض تلك الوقائع بقصائد من الشعر الرفيع فى الأدب العربى ـ لقد خابت المكيدة ولم تنجح الحاشية فى خطتها التى حسبتها مضمونة . وقد أعجب المعزبن باديس بالفتى المزاتى وشجاعته وفروسيته وتمنى لو كان فى حاشيته وجنده عدد من مثل هذا البطل ، ونزل من منصته وتقدم إلى الفتى يهنئه ويشكره ثم أعطاه جائزة مالية قدرها ألف وخمسمائه ديناراً فأخذها الفتى وشكر الملك على ثقته وانصرف مستعجلا وهو يتوقع أن تتفتق أذهان الحاشية عن مكيدة أخرى ، ويحسب أن خيبتهم فى التجربة الأولى ستزيد من حقدهم عليه وبغضهم له .

كان أبو باديس أبخت بن باديس من أولئك العلماء العاملين الذين لا تشغلهم الدنيا عن الدين . ولا تنسيهم تكاليف الحياة ما بذمتهم من واجبات نحو الأمة والمجتمع ، ولا يقصرون كفاحهم على الجانب المادى فتستعبدهم الدنيا ، ولا على الجانب الروحى فيقتعدون زوايا المساجد

لايبرحون ، ينتظرون من يرمى فى أيديهم باللقمة وعلى أجسامهم بالخرقة ، ولكنه كان يعمل عمل المؤمنين الأغنياء ، ويجاهد لإقامة دين الله ما وسعه الجهاد ، فكان يقوم بالتدريس لفتيان مزاتة البادين ، يتنقل بين أحيائهم فى سهول عنابة الخضراء ، وكان يجتمع بالعلماء والمشايخ فيناقشهم فى مسائل العلم ، ومشاكل السلوك وكان يقص من سيرة السلف الصالح ما فيه العبرة والموعظة الحسنة على المجتمعات التى يحضرها ، وألف فى الوعظ والإرشاد كتباً ، وكان كثير التجول للعبرة والاتعاظ ، وحج إلى بيت الله غير مرة ، وزار بيت المقدس ، وعندما كف بصره لزم بيته ، وفرغ لنفسه ، فكان إذا خلا مجلسه من طلاب العلم وأخبار السيرة رجع إلى نفسه ليقوم بحق ربه فى نوع من أنواع العبادة .

إما صلاة ينقطع فيها عن دنيا البشر إلى مناجاة خالقه ، وإما ابتهال ودعاء حار يرجو فيه رحمة الله ويستعيذ من عذابه ، وإما تلاوة للقرآن الكريم تلاوة تدبر وإمعان يراجع فيها أحكام الله .

وقد توفى أبو باديس عن سن تناهز المائه ، ولم يتحقق أمله فى أن تكون دولة مسلمة عادلة تسير على منهاج الدين فى أحكامها وتتبع نظمه فى سياستها وتوفى بعده ولده باديس ولم يتحقق الأمل ، ولحق بهما من بعد ولدهما محمد الفتى المزاتى الذى مكر به المعز بن باديس وحاشيته فانتصر عليهم بفضل شجاعته وبراعته فى الفروسية وحضور ذهنه عند الشدائد ولم يتحقق ذلك الأمل الذى ظل يراود أفراد هذه الأسرة ثلاثة أجيال .

على أن العلماء فى عصر أبى عبد الله لم يتركوها تمر فقد عتبوا عليه فى وفادته على المعز ، ولو لم يكونوا مقتنعين أنه لم يفد عليه طلباً للدنيا ولا تزلفاً

إلى أصحاب السلطة ، وإنما وفد عليه ليختبر قوته ، مقدراً سلطانه حتى يستمر على مسالمته أو يدعو إلى الثورة عليه وانتزاع الحكم من يديه .

فعلم أن الرجل قوى متمكن ، وأن الثورة عليه لا تزيد عن فتنة تذهب فيها أموال ودماء دون أن تحقق ما يأمله المسلمون ، فالتزم سيرة أبيه وجده وحافظ على الأمن والسلام . ولهذا الاعتبار لم يعامله أولئك العلماء كما عاملوا العلامة أبا محمد عبد الله بن جابر حين وفد على أمراء قابس ، وذلك أن أبا عبد الله اليشكنى كان غنياً قوياً لم تعلق به شبهة الطمع والتزلف حين وفد على المعز ، أما أبو محمد عبد الله بن جابر فقد كان مقلاً تغلب عليه الحاجة ، فلما وفد على أمراء قابس تعلقت به شبهة الرغبة فى دنياهم ، ودنياهم تلك غير نظيفة فأخرجه المشايخ إلى الخطة استناداً إلى الأثر المشهور « إذا رأيتم العالم يغشى باب السلطان فاتهموه على دينكم » .

# أبو سهل الفارسي[1]

قال عنه الأستاذ عثمان الكعاك في كتابه القيم « موجز التاريخ العام للجزائر » صفحة ٢١١ ما يلي : أبو سهل الفارسي من أحفاد الإمام عبد الرحمن ، وكان زاهداً متعففاً ، وله تآليف كثيرة باللغة البربرية ، وكان أفصح أهل زمانه بها وقد تولى خطة الترجمة بدواوين الحكومة على يد الإمام أفلح ثم الإمام يوسف .

كان شاعراً بليغاً وأديباً فصيحاً له دواوين شعرية في مراثي الدين وأهله ، والبكاء عليه دمعاً مدراراً ، وفي الوعظ والتذكير والتخويف ، وتاريخ أهل الدعوة ، كانت اثنتي عشر كتاباً ، ذهبت فريسة للنيران في ثورة أبي يزيد الخارجي » .

وقال عنه أبو العباس الدرجيني : « غلبت عليه هذه العزوة الفارسية وليس بفارسي وإنما هو نفوسي ولا شك أن أمه رستمية من بيت الإمامة ، فغلب نسبها عليه واشتهر به » ، وقال الدرجيني : « وكان أبو سهل فصيحاً بلغة البربر ولقد كان ترجمان جده الإمام أفلح ، وقيل بل ترجمان خاله يوسف الإمام . فقيد له اثني عشر كتاباً في المواعظ ، وفيها جمل من تواريخ أهل الدعوة فاختلس النسكار شطرها وبقي له ستة أجزاء » .

وذكر المؤرخون أنه في خاتمة هذه الأناشيد أو القصائد ، أبياتاً يقول فيها إنه يهدي هذه الدواوين الشعرية لأهل مذهبه من الإباضية . وعندما

---

(١) من علماء القرن الرابع ، ذكره البارودي في الطبقة السابعة .

سمع الإباضية بذلك كلفوا أحدهم فذهب إلى سعيد الفكارى الذى اختلسها فطالبه باسم الإباضية ، وردها منه . وجمعوها مع بقية القصائد الموجودة عندهم وضموها فى كتاب أودعوه أمنع حصونهم حينئذ « قلعة درجين » وحين أخذت هذه القلعة فيما بعد ، أحرق ما بها من كتب الإباضية وأحرقت هذه الدواوين القيمة فيما أحرق من نفائس الكتب .

واهتم بعد ذلك أبو عبد الله محمد بن بكر بهذا الأثر القيم فصار يجمعه من صدور الرجال ، ويلتقطه من ذواكر الحفاظ ، ولكن أكثر ذلك صار محرفاً مختل الموازين ، يقول الدرجينى : « فلما أخذت قلعة بنى درجين وأحرقت — أحرق ما وجد من هذه الكتب . فحينئذ تلاقى أبو عبد الله ما تحصل فى صدور العزابة فقيد منه أربعة وعشرين باباً ، فلذلك تجد فيها قلة الاتزان والزيادة والنقصان .

ومن المؤسف أن هذه القطع الشعرية حتى التى جمعها أبو عبد الله قد ضاعت ، ولقد بذلت ما لدى من الجهود للعثور على بعض تلك الأشعار فلم أوفق . ولعل من الأخطاء التى وقع فيها كثير من المؤرخين فيما أرى أنهم لم يعملوا على نقل تلك الشواهد بنصوصها فى لغاتها الأصلية . فاستغنوا عن تلك الشواهد بمناها ومعناها فى بعض الأحيان . وترجموا القليل منها أحياناً . ولا شك أن الترجمة لا تؤدى ما يؤديه الأصل ، ولا تدل دلالة حقيقية على المعانى التى وضعت لها عبارتها الأصلية فى لغتها الأصلية . ولقد تكفى الترجمة إذا كان الموضوع يتعلق بأحداث تاريخية تسرد سرداً . ولكن ذلك يكاد يكون مستحيلا إذا كان الموضوع يتعلق بالصور الشعرية والاختلاجات النفسية والإحساسات الرقيقة التى تعبر عنها كل لغة —

بالاضافة إلى اللفظ ـ بالجرس والإيحـــاء والكلمة الموزونة التى لا يغنى عنها غيرها .

وكنت كثيراً ما أحس بالأسف والحسرة عندما أقرأ ترجمة شخصية من الشخصيات فى كتب التاريخ فيقول المؤرخ إن للمترجم له شعراً أو نثراً باللغة البربرية له حلاوة وعليه طلاوة ولـكننى تركته مخافة التطويل أو خشية أن لايفهمه الناس وكنت أقول فى نفسى : ما ضر صاحبنا لو نقل إلينا تلك الشواهد بنصوصها ثم ترجمها أو ترجم مفرداتها إن كان يعرف معناها . وإلا نقلها إلينافيـكون قد أوفى الأمانة العلمية حقها . على أن بعضهم عمل بالمثل فنقل إلينا جملا من ذلك دون أن يتعرض لترجمة تلك النصوص لا فى معانيها الإجمالية ولا فى مفرداتها اللغوية ، ولا شك أن موقف هؤلاء أفضل من موقف الأولين . ورحم الله الجميع .

عاش أبو سهل الفارسى فى عهد الدولة الرستمية الأخير وكان ترجماناً للإمام يوسف بن محمد ـ ولا أعتقد أنه ترجم لجده أفلح . فإنه فى ذلك الحين كان صغيراً جداً . ولما تغلبت الدولة العبيدية على الدولة الرستمية ، وتشرد رجالها قصدت كل طائفة منهم جهة ما وكان أغلبهم قد اتجه إلى الواحات فى الجنوب ، أما أبوسهل فقد اختار أن يتجه إلى الشمال الشرقى وقصد مرسى الدجاج من جزائر بنى مزغنان وهى مواقع عاصمة الجزائر اليوم . وعاش هنالك فى دائرة ضيقة يعبد الله وينظم الشعر ، ويتحسر على مافات أمة الإسلام من خير حتى وافاه الأجل . وكان الناس يزورونه من حين إلى حين للاستفادة ، فلما توفى كان كثيراً ما يخطر لبعضهم أن يقول للآخرين : هيا بنا ننطلق إلى زيارة قبر النادب دينه فنستغفر له ونترحم عليه .

# أبو صالح جنون بن يمريان[1]

أبو صالح جنون بن يمريان شخصية فذة من تلك الشخصيات التى تتسامى بمواهبها وأعمالها وأخلاقها حتى تكون ظاهرة مرتفعة بين الجميع وعند الجميع . جمع أبو صالح بين عدد من الفضائل قل أن تجتمع فى شخص . فقد كان الرجل عالماً غزير المادة وذكياً متوقد الذكاء . وحليما واسع الحلم ، وكريماً بالغ الكرم ، وحيياً عظيم الحياء . ولكنه إلى ذلك كان شديداً فى أمر الله لا يخاف ولا يأبه ولا يسكت . وقد أغدق الله عليه نعمة المال ووسع عليه موارد الثروة ، فكان لسعة علمه وماله وخلقه . مقصداً للناس يأتونه من كل جانب ، ويلتجئون إليه فى كل شدة ، وكان قد حزم أمر وارجلان ووحد بينها حتى صارت كتلة قوية يخشاها الظالمون ويتحاشون جانبها .

لم يشترك فى المجال السياسى ولم يقم بأية حركة فى هذا الميدان حسبما وصلت إليه فى أبحاثى ، فكانت وارجلان فى عصره مستقلة عن جميع الدول الحاكمة تحكم نفسها بنفسها . يقيم العلماء أحكام الإسلام فيها اعتماداً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة الأئمة من السلف لاسيما أئمة الدولة الرستمية وما استنبطوا من أحكام . ولذلك فقد كانت ملجأ لعلماء الإباضية وزعمائهم طيلة قرن كامل يفرون إليها من الاضطهاد فيجدون فى ربوعها الأمن الشامل فى قامة طبيعية لا تقربها يد ظالم ، وكان المقصود من هذا الملجأ الأمين إنما هو أبو صالح جنون . ويكفى أن يعرف القارىء ما يلى حتى يدرك المكانة الرفيعة التى كان يتمتع بها أبو صالح فى ذلك الحين . عندما تغلبت الدولة

---

(١) من علماء القرن الرابع ، ذكره البارونى فى الطبقة السابعة .

العبيدية على الدولة الرستمية واحتلت تاهرت كانت أعظم شخصية رستمية يخشاها العبيديون إنما هو أبو يوسف يعقوب بن أفلح . وهو حرى لو دعا الناس إلى مبايعته بالإمامة أن يستجيبوا له ويبايعونه ولو بايعوه لاستطاع أن يكوِّن دولة قوية تقف فى وجه الدولة العبيدية التى بدأت تزحف وتمتد . ولذلك فقد كان قواد الدولة العبيدية حراصاً على قتله أو الحصول عليه ، فأطلقوا من ورائه فرقاً من الجيش تطارده خوفاً من أن تتجمع من حوله السيوف وتقف معه الجموع كما وقفت مع جده العظيم عبد الرحمن . وجرت تلك الفرق من الجنود وراءه أشواطاً ولكنها أخيراً توقفت حين علمت أنه يقصد وارجلان الحصينة القوية ، وكان العبيديون يخشون إثارتها فتحاشوها . ووصل العالم الكبير أبو يوسف يعقوب إلى وارجلان فاستقبله أبو صالح كما يستقبل الولد أباه . وكان أبو يوسف شيخاً كبيراً أما أبو صالح فقد كان فى ريعان الشباب وعنفوان القوة . ووضع الشاب المؤمن الغنى كل ما كان له تحت تصرف الشيخ الكبير ، وعرض عليه أن يدعو الناس إلى بيعته . ولكن أبا يوسف كان قد استقر رأيه على رأى بعض علماء المذهب من الابتعاد عن المجال السياسى ، وتركه لأولئك الذين يتقاتلون عليه فاقتنع وأحب أن يقضى بقية حياته فى هدوء . فمهد له أبو صالح سبيل الحياة الكريمة ، وأغدق عليه من ماله الغزير وأحاطه بما يحاط به أمثاله من العناية والتكريم .

هذه واحدة ، أما الثانية فقد كانت هى الأخرى فى الدولة العبيدية . وذلك أن المعز لدين الله الفاطمى حين قرر الانتقال إلى القاهرة كان يخشى على ملكه فى المغرب من الإباضية وكان يخشى على الأخص من العالمين الفاضلين الأمامين أبى خزر يغلا بن أيوب ، وأبى نوح سعيد بن زنغيل ، فقرر أن

يأخذهما معه وأصدر أمره إليهما بذلك فاستجاب أبو خزر أما أبو نوح فتعلل بالمرض وعندما أراد المعز السفر أحضر إليه خليفته على بلاد المغرب وأوصاه أغرب وصية[1] أوصى بها ملك جائر عامله على رعيته . وكان فيما أوصاه به أن لا يرفع السيف عن البربر . والبربر فى ذلك الحين هم سكان البلاد . فتوقع أبو نوح أذى كثيراً يناله إن هو أقام فى موطنه ( المهدّ ) قريباً من مركز الدولة وقرر أن يفر بأسرته إلى مكان يأمن فيه مكر الدولة العبيدية ومكائد الحكام الظالمين ورأى أن أنسب مكان له إنما هو وارجلان ، فاتجه إلى المغرب حتى وصل وارجلان وكانت فى أحسن عهود ازدهارها كثرة سكان ووفرة ثروة وغزارة علم فتلقاه أبو صالح وأكرم وفادته وأسبغ عليه فضله كما فعل من قبل مع الإمام أبى يوسف يعقوب ابن أفلح .

ويبدو أن أبا نوح كان خائفاً يترقب ما سوف يقوم به الحكام الظالمون وقص مخاوفه على أبى صالح فقال له ما قاله سيدنا شعيب لسيدنا موسى عليهما السلام : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ . واستقر أبو نوح فى وارجلان عند أبى صالح . وقد يسر له أسباب الحياة الكريمة ، والمعيشة الرغدة ، وبعد زمن حنّ الإمام الكبير إلى موطنه وعزم على زيارة أهله فى بلده .

فاستمسك به أبو صالح وعرض عليه أن يقاسمه ماله ، ولكن الشوق

---

(١) لما أراد المعز لدين الله الفاطمى الانتقال إلى القاهرة أوصى خليفته على المغرب يوسف ابن زيرى قائلا : « إن نسيت شيئا مما أوصيك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحداً من إخوتك أو بيتك شيئا فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك . واستوص بالمضر خيراً » .

إلى الوطن كان قد غلب على الإمام واستبد به وصمم على الزيارة .

رجع أبو نوح فعلا إلى وطنه ( الحمة ) ولكنه وجد الأحوال قد تغيرت على ما كانت عليه وتبدل الناس وسيرتهم ، وفعل الحكم الظالم ، والفتن المتوالية فعله فى دين الناس وأخلاقهم فتغيرت معالم الحياة وتبدلت القيم فى نظر الناس . فأصبح قسم منهم ينظر إلى ترف الحياة نظره إلى غاية سامية يسعى إليها بكل ما فى يده من وسيلة . وقسم قد اعتصم بدينه ، واستمسك بأخلاقه ومثله . فأعرضت عنه رفاهية الحياة ، وجانبته مادية الحكم ، واضطهده الظالمون وأعوان الظالمين ومن يسير فى ركابهم .

فندم أبو نوح على مفارقته لوارجلان ، وخروجه عن صحبة أولئك القوم الكرام .

كانت وارجلان عاصمة من عواصم الصحراء تبدو فيها بين الواحات كالعملاق العظيم وكان أبو صالح على عامة هذا العملاق طيلة قرن كامل يملأ الدنيا ديناً وعلماً وخلقاً وعملاً صالحاً . كان رجال العلم يلجأون إليه من كل مكان فيجدون فى المدينة نعم المقر ، ويجدون من السكان نعم الاخوة ، ويجدون من أبى صالح خاصة نعم الأب والأخ والصديق يضفى عليهم محبته ، ويقدم إليهم خدمته ، ويتولاهم بإرشاده ، ويوجههم بتعليمه ، وينفق عليهم من ماله . ولعل القارىء الكريم يتطلع إلى معرفة بعض الوقائع من حياة هذا الرجل العظيم فإذا شاء ذلك فإليه أمثلة منها .

١ — وقعت مجاعة فى وارجلان ، وأصبح عدد الفقراء يزداد كل يوم ، وما بأيدى الناس يتناقص حتى أحس أهل المدينة بالخطر ، وكان أبو صالح من أكثر الناس ثروة وأكثرهم عملا وأحسنهم ادخاراً . فلما

رأى ذلك فى الناس بدأ ينفق عليهم من ماله بالقدر الذى ينفق منه على عياله حتى نفد جميع ما عنده ولم يفضل أسرته أو نفسه إبان الإنفاق بشىء ولم يدخر شيئاً حتى أصبح مثلهم لا يملك قوت يوم ثم جاء الفرج من الله .

٢ — مرت سنة عجفاء على أهل وارجلان فر فيها أصحاب الماشية بجميع مواشيهم إلى مواقع الغيث والخصب بعيداً عن وارجلان وقد أمسك أبو صالح عنده جملا يعلفه وبعض شياه احتساباً للطوارىء واستعداداً للضيوف. ومضى زمن غير يسير على الناس لم يذوقوا فيه لحماً فقدموا إليه وكان أبو صالح يلاحظ فيهم كل شىء ويسمع الواحد منهم يقول للآخر لقد مضى علينا كذا وكذا يوماً أو شهراً لم نذق فيه اللحم فيجيبه الثانى بمثل جوابه . فعمد أبو صالح إلى الجمل الذى يعلفه فنحره ثم قسمه على أهل المدينة جميعاً وسمع آخر الأمر أن أهل بيت لم يصل إليهم نصيبهم من اللحم فأمر خادمه أن يأخذ نصيب أسرته إلى أهل ذلك البيت ثم أمره فذبح لأهله شاة تعويضاً لهم عن نصيبهم الذى أخذه من بين أيديهم .

٣ — كان يشتغل فى مزارعه كأنشط الزراع وأبرعهم واشتغل مرة بسقى الأجنة وتوزيع المياه عليها حتى فاتته صلاة المغرب مع الإمام وكان فى ليلة جمعة من شهر رمضان فتألم لذلك أشد الألم وشق عليه هذا التقصير فأخذ فى الصلاة بعد ما دخل المسجد واستمر فجاءه أهله بفطوره فوجدوه قائماً يصلى فوضعوه إلى جانبه ثم جاءوه بسحوره فوجدوه قائماً يصلى فوضعوه إلى جانبه ولم يشتغل به حتى ظهر عليه الفجر وعند الصباح تصدق بطعام مسكينين فطوراً وسحوراً وقال عن نفسه : « هذا جزاء راع ضيع ما يرعاه » يعنى بذلك عقابه لنفسه بحرمانها من فطورها وسحورها وحملها على الصلاة

ليلة كاملة والتصدق على مسكينين . تكفيراً عن عدم حضوره صلاة الجماعة فى المسجد مرة واحدة .

٤ — كان رجل سليط اللسان من أولئك الناس الذين يحلو لهم التطاول . فآذى الشيخ ببعض ما يكره فى يوم من الأيام . ودار الزمن وأصاب الناس مجاعة فأخذ أبو صالح يوزع الصدقات كما هو شأنه فى مثل تلك الظروف ووقف ذلك الرجل المتطاول بين عينى أبى صالح يمد يديه للصدقة . وتذكر الشيخ الكبير ذلك الرجل وموقفه منه فى يوم من الأيام ، وأحس فى نفسه بوسوسة الشيطان . فزاد للرجل عما كان يعطيه لسائر الناس حتى يرغم أنف الشيطان . ودار الزمن دورة أخرى وحل بالناس ما يحل بهم فى كل دورة من جفاف وما يتبع ذلك من جوع ووقف أبو صالح كما اعتاد أن يقف يوزع الصدقات ويفرق على الناس ما يقيمون به أودهم . ووقف فيمن وقف فتاة يبدو عليها البؤس والجوع وتهامس الناس أنها بنت فلان للرجل الذى تطاول على أبى صالح وآذاه دون أن يحترم فى شخصه الدين أو العلم أو الكرم وتحركت نوازع الشيطان وأحس أبو صالح أن إبليس يحرض أعوانه للعمل ولكن الله أخزى إبليس وأعوان إبليس على يدى أبى صالح فرجعوا مدحورين ورجعت الفتاة بضعف ماحصل عليه أترابها .

• — كتب إليه ابن عم له فى المغرب يدعوه إليه ويقول له مرغباً « يا ابن العم لقد أقمت بأرض قفراء وعندنا أرض خصبة ، ففرش الكساء منها يوقر البعير حباً » فأجابه أبو صالح : « يا ابن العم إن أرضنا كريمة ، قعدة رجل منها توقر الجمل عسلا » . يعنى النخيل . وأصر أبو صالح على البقاء فى وارجلان وفضل الإقامة فى هذه الواحة عن الرجوع إلى وطنه من أرض

المغرب الخصبة لأن خصوبة وارجلان فى ذلك الحين إنما كانت فى الدين والعلم والعمل ولقد أكرمه الله فأغدق عليه فيها التمر والعسل وجعله ملاذاً ومعاذاً .

٦ — جاء رجل من أهل وارجلان يستفتيه . وكان الرجل مقلا وله زوجة ذات مال وثروة فسأل الرجل أبا صالح هل يجوز له أن يأخذ زكاة مال زوجه فتحرج أبو صالح ولم يجبه وأرجأه إلى أن يسأل من هو أعلم منه حتى وصل أبو نوح سعيد بن زنغيل نأفتى له بجواز ذلك مما هو معروف من مبادىء الفقه التى لا تخفى على أبى صالح وإنمـــا هو الورع والتثبت فى دين الله .

٧ — وجد أحد أبنائه كتاباً فى السوق فاشتراه ولما رجع إلى البيت أخبر أباه وقرأ عليه فصولا منه فكان أبو صالح يقول وهو كأنما يخاطب الكتاب : قد باعك من لا يعرفك ، واشتراك من لا يعرفك .

٨ — كانت له زوجة شرسة الطباع سيئة الخلق لم يتمكن أبو صالح من ترويضها وذات يوم كانت تعجن عجيناً للخبز فكلمها أبو صالح فى شأن من الشئون لم يعجبها فغضبت ولطمت زوجها أبا صالح بيدها الملوثة بالعجين حتى بقى أثره على وجهه . فصبر الرجل العظيم على حماقة المرأة الشرسة الوقحة . وعندما اجتمع بأستاذه الكبير أبى يعقوب الطرفى قص عليه ما وقع من زوجه فتبسم أبو يعقوب وأشار إلى زوجته هو . فقال أبو صالح : ما شأنها ؟ . فقال أبو يعقوب : لقد كانت البارحة تقلى بعض الحبوب لتصنع لنا سويقاً فكلمتها فى شأن من الشئون فلم يرق لها كلامى وغضبت غضباً شديداً ثم أخذت المقلى وضربتنى به على رأسى حتى دخل للقلى إلى عنقى كالطوق . فقال أبو صالح ـ أنت أنت ـ يعنى أصبر منى وأعظم .

٩ — أوصى بنيه فقال لهم : يابنى .. إذا كان إبان غلتكم فتولوها بأنفسكم ولا تولوها غيركم حتى توصلوها موضع حرزكم . فإن لم تكونوا أصحاب غلة ولم يكن لكم بُدٌّ من شرائها فاشتروها ما دامت فى أصولها ولا تتركوها حتى تصل إلى الحرز فيصعب إحراجها . وإن لم تكونوا أصحاب غلة ولا قادرين على شرائها وتنزلتم إلى طلبها فاطلبوها قبل دخولها إلى الحرز ، فيسهل عطاؤها — والثانية إن كنتم فى بلد فأول ما تلتمسون لأنفسكم السكن ، فإن من سكن فى مسكن غيره ، فإما أن يكون غنياً . وإما أن يكون فقيراً . فإن كان غنياً ووسع على نفسه سماه الناس مبذراً وإن ضيق سموه مقتراً ، وإن كان فقيراً قالوا ليس وراء هـذا إلا الأذى بالدخول والخروج . ومن كان فى مسكنه يستر عليه غناه وفقره ، ولا يعرف الناس له عيباً — والثالثة إذا أقبل الشتاء فحصلوا كسوة شتوتكم فإن من بات مبيت سوء ليلة واحدة لا يخلقها أبداً . والذى تخلقون من ثيابكم فيه بقية ومنفعة للصيف المقبل ، وكف للألسنة عنكم .

أحسب أن هذه الوقائع التى نقلتها للقارىء الكريم تضع إطاراً عاماً جامعاً للصورة التى نحاول أن نرسمها لهذا الرجل العظيم فى شخصه وفى سلوكه . وهل ترى أكرم ممن ينفق فى المحل لا يترك شيئاً لنفسه وأهله ولا يفضلهم بشىء على غيرهم بل ويتحسس رغباتهم وشهواتهم فإذا أحس أنهم قرموا إلى اللحم عمد إلى خيار ماله فذبحه لهم ، وهل ترى أعظم ممن يلتجىء إليه الزعماء الذين تطاردهم دول وجيوش حتى إذا وصلوا إليه وجدوا فى كنفه الأمن والسلام والعيش الرغيد والحياة الكريمة .

وهل تجد أتقى لله ممن تفوته صلاة الجماعة مرة واحدة لانشغاله بعمل

مندوب إليه فيعاقب نفسه على ذلك بمواصلة الصلاة ليلة كاملة وحرمان نفسه من الأكل وإطعام مسكينين .

وهل تجد أصبر على الأذى ممن تقوم إليه زوجته وبداها ملطختان بالعجين فتصفعه حتى يبقى أثر العجين على وجهه الكريم فلا يزيد على الحوقلة والاستغفار .

وهل تجد أحلم ممن يقف بين يديه رجل قد سبقت منه الإساءة إليه والتطاول عليه فلا يجد من نفسه إلا أن يتصدق عليه بضعف ما يتصدق به على غيره إرغاماً لأنف الشيطان .

رحم الله أبا صالح فقد كان كما قال أبو العباس الدرجيني « ذو الورع والسخاء وصالح بركات الدعاء ، وهو أحد أقطاب الدين ، وشمّال اليتامى والمساكين » .

# أبو نوح سعيد بن يخلف[1]

أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتى علم من أعلام مزاته ، وعظيم من عظمائها كان يعيش عيشة أهل البادية ، ينتقل بأنعامه الكثيرة بين الأقطار الثلاثة : الجزائر وتونس وليبيا ـ طلباً للمرعى ، وجرياً وراء الخصب ، قال عنه أبو العباس الدرجينى : « وكان ذا سعة فى العلم والمال ، رحيب الصدر فيهما عند السؤال ، لا يضجر من السائل ، ولا يعيا من أجوبة المسائل ، والورع فى كل ذلك دليله ، والرفق خليله » .

كان أبو نوح صاحب إبل وغنم وخيل ، يتأثر خطا أبى باديس أبخت ، ويقتدى به ، وكان من أفذاذ العلماء ، فهو يجمع بين سعة المال وسعة العلم ، ومتانة الدين وكان يعيش فى عصر انحرف فيه الحكم عن دين الله ، فهو ينتظر يوماً تشرق فيه شمس العدالة فى دولة إسلامية نزيهة الحكم ، سليمة المقصد ، قويمة الاتجاه ، مسلمة المنهج .

ولذلك فهو لا ينفك يعد لذلك اليوم ، ويجمع له المال . فيحافظ له عليه ويعد الخيل ويربيها ويرعاها ، ويجمع السلاح والعتاد ووسائل القوة ، حتى إذا جاءت الدولة المسلمة التى ترعى كتاب الله وتعمل بحكمة ، وقف إلى جانبها وأمدها بالمال والسلاح وكان من أشد أنصارها ، وأقوى أعضادها ، وأصلب أعوانها على إقامة الحق والعدل . ولكن القدر لم يحقق له هذا الأمل ولم يتح له هذه الفرصة ولم تتكون تلك الدولة التى كان يرجوها له ويعد لها كان أبو نوح فارساً من أعظم الفرسان . وكان يختار من رعائل خيله

---

(١) من علماء القرن الرابع ، ذكره البارونى فى الطبقة الثامنة .

أعرقها نسباً وأعتقها منظراً ومظهراً فيتخذها لنفسه يركبها فى أسفاره الكثيرة ، ويحج عليها إلى بيت الله ويزور بلاد الإسلام يتعرف فيها على أحوال المسلمين فى كل مكان ، وكان ورعاً شديد الورع ، محافظاً شديد المحافظة يأخذ نفسه بالعزيمة ولا يجنح إلى الرخصة ، يحاسب نفسه على الكبيرة والصغيرة أشد المحاسبة ، ويحرص أشد الحرص أن يكون دائماً مع ربه على أوثق العلائق .

كان كما أسلفت كثير الأسفار وكان يعيش فى البادية وكان يبيت فى الخلاء وكان يقطع المسافات الطويلة والصحارى الشاسعة ما بين الجزائر وليبيا منفرداً أو مع رفقة ومع ذلك لم يُصَلِّ بتيمم قط . وكان قد خصص لصلاته ثياباً لا يلبسها فى غير حالة الصلاة أبداً فإذا حضرت الصلاة تطهر ثم عمد إلى خرج يحتفظ به معه دائماً فأخرج ثياباً نظيفة طاهرة ، فصلى بها فرضاً أو سنة أو تطوعاً أو كلها ، فإذا قضى صلاته طوى تلك الثياب ثم أعادها فى مكانها من الخرج نظيفة طاهرة ولبس لباسه العادى وذلك لأنه كان شديد الاحتياط فى موضوع الطهارة . فإن اللباس العادى قـــد تمسه أو تعلق به بعض النجاسات بعلم أو بغير علم وهو يتنقل بين مرابض الغنم ومعاطن الإبل واصطبلات الخيول .

وقد عود نفسه على أنواع من العبادة لم يتركها قط فى حضر ولا سفر فقد كان يصلى صلاة الضحى فلم يتركها طول حياته ، كما أنه اعتاد أن يصلى الصلوات فى أوائل أوقاتها لا يؤخرها أبداً فإذا كان فى سفر وحل وقت الصلاة أوقف فرسه ثم نزل فتطهر ثم يصلى الصلاة الحاضرة ، فإذا أتمها ركب فرسه فلحق بالرفقة إن كان له رفقة ، وموقفه من صلاة الفرض هو موقفه

من صلاة السنة وصلاة التطوع التى اعتادها ، وكان مما اعتاده نوم الظهيرة فكان لا يتركه فى حضر ولا سفر ، فعندما يحل وقت المقيل وهو مسافر فإنه ينزل عن فرسه ثم يضرب بجنبيه على الأرض فينام نومة الظهيرة ثم يقوم فيتطهر ويصلى ويركب جواده فيلحق بالرفقة ، وكان هذا دأبه حتى توفاه الله .

أعتقد أن ما حدثتك به عنه إنما يعطينا بعض الخطوط إذا أردنا أن نرسم صورة لرجل مسلم يعيش فى بيئة لا تساعد كثيراً على الاستمساك بطرق العبادة والاعتماد فى جميع الأحوال على العزيمة دون الرخصة ، ولعله وأمثاله يقومون حجة على المسلمين الذين يجدون من انشغالهم بالأعمال اليومية والدنيوية الكثيرة أعذاراً يستندون إليها فى الإهمال والتهاون عن أداء فرائض الله .

أما إذا أردنا أن نرسم له صورة تمثله فى الجانب العلمى فإن لذلك قصصاً ووقائع تدل على ما يتمتع به الرجل من غزارة العلم واستقلال النظرة ، ونفاذ البصيرة ، ومراعاة لمصلحة الأمة ، وذكاء نفاذ إلى معرفة العلل الحقيقية الشرعية لأحكام الله . كان لا يفتأ يفتى بوجوب مراعاة مصلحة المسلمين ، وصيانة أموالهم حتى وهم غائبون ، وكان يقول مهما تصرفت فى أموال الناس ، بقصد أن تدخل عليها مصلحة فى ذلك أو تدرأ عنها مضرة فإنه ليس عليك تباعة فى ذلك ولو لحقها بعض الضرر .

وتذكر كتب التاريخ أنه يسير فى الحياة بمقتضى فتواه وينفذها فيما يتطلب ذلك منه . فقد كان فى يوم من الأيام راكباً على فرس يتبعها مهر ومر بجانب مزرعة لأحد الناس ، فرأى فى وسطها قطيعاً من البقر

فلوى عنان فرسه إلى المزرعة ودخلها راكباً يطرد عنها البقر ولم يتحرج مما قد تطأوه أرجل الفرس أو المهر أو ما عساه يختطفه المهر وهو يجرى وراء أمه وقدر أنه يباح له هذا الضرر القليل ليبعد عن المزرعة الضرر الكبير .

كان أبو نوح سعيد بن يخلف متواضعاً كريماً سهل الخلق طيب النفس لا يتكلف ولا يتملق عظماء الناس ، ولا يتظاهر بالغنى أمامهم أو يترفع عنهم . وعندما وقعت مجاعة محرقة بسبب جفاف طال أمده فى الجزائر وتونس ، وفساد فى الحكم امتد وطال ، وفتن عمياء كانت توقد نيرانها نزاعاً على السلطة فلا تنطفىء ؛ ارتحل أبو نوح بمواشيه إلى الأراضى الليبية وقد اختار لها تلك السهول الفسيحة الممتدة بين البحر وزوارة من الشمال وجبل نفوسة من الجنوب . وقد زاره هناك الإمام الكبير أبو نوح سعيد بن زنغيل أيام محنته حين كان يطارده الظالمون من أتباع الدولة العبيدية فيتنكر فى ثياب رعاة الإبل فمكث عنده أياماً فكان يقدم له ( العصيدة باللبن ) وهى أكلة ليبية معروفة يتقنها أهل البادية وأشباههم ويميلون إليها لسهولتها وخفة مؤنتها فكان يقدمها فى حياء ويقول للإمام : « كل ياشيخ فإنى لا أعتذر لمن أدعو له بالجنة وأرجو أن يكون من أهلها » .

وأبو نوح سعيد بن زنغيل حينما ذهب إلى وارجلان وبقى فى ضيافة أبى صالح جنون تحير أبو صالح فى طعامه وبحث فلم يجد فى وارجلان كلها إلا امرأة واحدة حاذقة بألوان الطهى تخصصها للإشراف على ما يقدم لأبى نوح وكانوا يحسبونه مرفهاً . كان أبو نوح سعيد بن زنغيل وهو فى ضيافة أبى نوح سعيد بن يخلف حين يقدم إليه طعامه ( عيش ولبن )

ويعتذر له مضيفه بذلك العذر اللطيف يسر وينشرح صدره بهذه البساطة ويستلذ ذلك الطعام البسيط ويفضله على كثير مما يقدمه إليه الآخرون من المذبائح والاحتفال فى إعداد الطعام وتعديد ألوانه وأشكاله ممن ليسوا فى مكانة أبى نوح الدينية والخلقية .

ولعل أحسن ما نختم به هذا الفصل ما قاله أبو العباس الدرجينى : « وكان كثير المال كثير الأضياف ، لا يرد بابه دون أمل » .

obeikandl.com

# أبو عبد الله محمد بن بكر[1]

« الطود الذى تضاءلت دونه الأطواد ، والبحر الذى لاتقاس به الثماد . أقامه الإباضية مقام الإمام ، فى جميع الأمور والأحكام ، أسس لهم قواعد السيرة ، وله فى كل فن تآليف كثيرة » . هذه شهادة اتفق عليها المؤرخان الكبيران : الدرجينى والشماخى ، وهى تشير بإيجاز إلى منزلة أبى عبد الله عند الإباضية ، وإلى ما كان يتمتع به من ثقة وإكبار عندهم . ولكنها مع ذلك لا تكفى لإعطاء صورة واضحة عن هذا الإمام العظيم الذى يعتبر بحق أحد أولئك الأعلام القلائل الذين يوجدون فى فترات متباعدة من الزمن ، فيوجهون البشرية فى أطوار من التاريخ فيتغير التاريخ بتوجيههم .

لقد كان أبو عبد الله بآرائه وتعليمه وتوجيهه وسلوكه فاصلا واضحاً بين طورين من أطوار تاريخ الإباضية فى المغرب الإسلامى .

ولد أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائى فى منتصف القرن الرابع الهجرى بمدينة قرمطاء العظيمة حينئذ والقرية الصغيرة المنعزلة الآن على ربوة مرتفعة فوق قمة شامخة من قمم جبل نفوسة تطل على واد عميق تتناثر فيه أجنة[2] فسيحة ترتفع منها نخلات باسقات وتجثم فيه أعداد من شجر التين الخضر فى الصيف ، العارى فى الشتاء ، من أسرة مشهورة بالعلم والعمل والصلاح ، فقد كان أبوه وجده من علماء الجبل ، ولهما فى كتب الفقه أقوال

---

(١) ولد سنة ٣٤٥ هـ حسبما ذكره أستاذنا باكلى عبد الرحمن وتوفى سنة ٤١٠ .

(٢) كثيراً ما أستعمل كلمة ( أجنة ) جمعا لكلمة جنان قياسا على (أسلحة) جمع سلاح وأظمة جمع نظام وإن كان الشائع استعمالها جمعا لكلمة جنين .

منتشرة فى مختلف مسائل الفروع . درس على مشايخ الجبل حتى بلغ مرتبة رفيعة ثم رغب فى المزيد لا فى العلوم النظرية فإن معين العلوم النظرية فى الجبل حينئذ كان لا ينضب ولكنه أراد أن يدرس علوم الاجتماع والمشاهدة وسافر من فرسطاء إلى جزيرة جربة فدرس على بعض مشايخها حتى استوعب ما عندهم ثم انتقل إلى القيروان وكانت حينئذ عامرة بعلماء الإباضية فقعد عند أحد مشائخها حتى استوعب ما عنده فقال له الشيخ: أوصى بك إلى من هو أعلم منى . فانتقل إلى أبو محمد ولم يلبث إلا يسيراً حتى استوعب ما عنده لما رزق من الذكاء والحرص والجد وقرر أن يرجع إلى البحر الذى لا ينضب : الإمام أبى نوح سعيد بن زنغيل ذلك الفتى الذى شهد له المعز الفاطمى بالبراعة فى النقاش فقال فيه :( أما سعيد ففتى مجادل ) وبعد دراسته على أبى نوح . ابتدأ عهد الكفاح فى العمل ـ وربما بتوجيه من أبى نوح ـ متنقلا بين بلاد الإباضية فى المغرب الإسلامى فرجع إلى جبل نفوسة وبنى هنالك مسجده المعروف إلى الآن فى بلده فرسطاء وكان قد وضع الخطوط العريضة لنظامه المعروف بمعاونة أبى زكرياء بن أبى مسور فدعا إليه فى الجبل وطبق فى بعض الجهات ولم ينتظر حتى يعم جميع مناطق الجبل فقد كان مطمئناً وإنما قرر الانتقال إلى بلاد المغرب فمر بجربة من جديد وعمل على إقرار النظام بمساعدة علمائها ثم تنقل بين بلاد الإباضية فى الجنوب التونسى وكانوا فى ذلك الحين مضطهدين محاربين يستبد بهم الخوف من الظلم المرير المتواصل فلم يستطع الإقامة هنالك ومر ببلاد قصطيلية بسرعة كما مر من قبل بجبال دمر وغيرها حتى وصل جنوب الجزائر من وغلانت وبلاد أريغ ووارجلان وبادية بني مصعب فاستقر به المقام هنالك وظهرت نتائج كفاحه

المثمرة . ابتداء من سنة ٤٠٩ التى تم فيها صياغة نظام العزابة فى صورة مواد قانونية .

هذا ملخص سريع لحركته الإجمالية ولعلنا نساعد القارىء الكريم فى تكوين صورة عامة عنه بالقطات الآتية التى نجعلها بين يديه وهى تكمل بعضها البعض لتعطى صورة متناسقة لذلك الرجل العظيم .

كان الإباضية فى المغرب الإسلامى كسائر فرق الأمة ، يعنون عناية فائقة بقضية الحكم ، ويعتقدون أن المجتمع لا يقوم على الإسلام بدونه ، ويعملون بجهد على إرجاعه إلى ما كان عليه فى عهوده الزاهرة من النزاهة والاستقامة والعدل ويطالبون الدول القائمة بذلك . وحاولوا هم أن يقوموا بهذا الدور للأمة المسلمة ، وقد ضربوا فى ذلك أمثله رائعة حفظها لهم التاريخ. ويمتد هذا الطور من دخول الإباضية إلى المغرب الإسلامى إلى نهاية انقراض الدولة الرستمية أو بعدها بقليل .

بعد انقراض الرستمية انصرف الإباضية عن الاهتمام بقضية الحكم ورئاسة الدولة ومظهر السلطة العلنية ـ إلى الاهتمام بالمجتمع ومحاولة حمله على السير فى المنهج الإسلامى فى شئون الفرد وشئون الجماعة دون أن يتعرضوا لقضية الدولة ومن يتولى الحكم . على أن موقفهم هذا لم يخل من تطلعات فى كثير من الأحيان إلى إقامة دولة وكثيراً ما تطرح اقتراحات بهذا الشأن على بعض الشخصيات التى تلتف حولها الجماهير .

فلما جاء الإمام أبو عبد الله الفرسطائى أعرض عن التفكير فى قضية الحكم وتكوين الدولة . وقرر نظامه الذى اعتبر أحسن بديل عن قيام دولة عادلة وكان هذا النظام فتولى جميع الشئون وكل القضايا حسب حكم الله

ما عدا الأحكام الخاصة بالإمام كإقامة الحدود وما شابه ذلك من الأمور التى تتعلق برئيس دولة قائمة .

قرر أبو عبد الله هذا الاتجاه ، واتخذ له قواعد وأسساً ، ودعا الناس إلى السير عليه ، ونفذه فى حياته ، ودرس عليه تلاميذه الذين يبلغون المئات من جميع الجهات ، والذين كانوا يكونون معه فرقاً من الشباب المؤمن الحريص على طاعة الله المتفانى فى خدمة الدعوة ، وكان أولئك الشباب يتسابقون إلى تنفيذ أوامر الشيخ وتلبية طلباته والقيام بأمره ويقومون معه بإبطال المنكر حتى بالقوة إذا عرف أن ذلك لا يؤدى إلى فتنة تضر بالمسلمين .

ولقد أوتى أبو عبد الله من الصفات ما يؤهله لأن يبلغ أعظم منزلة فى نفوس الناس . ولو اتجه اتجاهاً سياسياً ودعا الناس إلى بيعته لأجمعوا عليه وكان خليقاً أن يفوز .

ولكن الرجل كان يبتعد عن مظاهر السلطة وينأى عما يجر إلى سفك الدماء ، ويتحاشى العظمة الزائفة التى يتهارش عليها طلاب الدنيا . ويتهالكون عليها حتى يهلكوا فى سبيلها .

كان يعمل فى اتجاه مضاد لتلك المظاهر ، يدعو الناس إلى المحبة والتعاون ويجمع قلوبهم على عبادة الله والخضوع له وحده . والالتجاء إليه فيما دق وجل من الأمور . وإرجاع جميع الشئون إلى كتاب الله الكريم أو سنة رسوله العظيم عليه أزكى الصلاة وأفضل التسليم . أو إلى سيرة المهتدين من خيار المسلمين فى خير القرون .

١ — كان ألمعياً حاد الذكاء ، يفهم الخاطرة ، ويدرك اللمحة العابرة ، ويصل إلى المعنى الباعث على حركة ، ويتغلغل إلى ما يختلج فى أعماق النفوس من محدثيه .

قال أبو الربيع : كنت عنده يوماً فقدم بسراً[1] لعمال يعملون عنده . قال : كل معهم ياسليمان فامتنعت . قال : كل فإن من يطاوع مشكور الحال .. فأردت أن أقول: ولو فيما لاينبغى؟ فأمسكت. فاطلع على ما كتمت، وكشف عما عنه سترت . قال : يا سليمان : ذلك ليس بمطاوع . فنطق به قبل أن أظهره له . إن الاختلاجة اليسيرة التى اختلجها أبو الربيع حين هم أن يتكلم ثم سكت فهمها أبو عبد الله وأوضحها بنفس العبارة التى كانت تتردد فى ذهن التلميذ النجيب .

٢ — كان يهتم بكل شأن من شئون المسلمين يرعى التلاميذ ويتولى الإنفاق عليهم ويرعى المجتمع ويتولى توجيهه وإرشاده ، ويرعى الفقير ويسد عليه فقره وعوزه ويرعى الغائب فى أهله حتى يؤب ، ويرعى الأرملة واليتيم . وقد كانت جميع أمور الناس ومشاكلهم تلقى عليه ، فكانت تجد الحلول السليمة ، والأحكام الشرعية الصحيحة ، والإجراءات التنفيذية السريعة . ولهذه الميزات وثق به الناس فألقوا إليه بمقاليد أمورهم ، ترفع إليه المشاكل للحل ، وتجمع عنده الأموال للإنفاق فى سبيل الخير والمنفعة . ويتجمع لديه الشباب للتعلم والتدرب على العمل .

جاءته امرأة تذكر له أنها من حيث المال والنفقة فى نعمة ورغد تحمد

---

(١) البسر : البلح بعد أن يصفر وقبل أن يرطب .

الله عليهما ولكن زوجها قد سافر إلى ليبيا وأطال الإقامة هناك عدة سنوات وقد أصابها ما يصيب مثلها من الضرر وكان على زوجها أن يأخذها معه أو أن يعود إليها بعد غياب معقول ولو فى فترات متقطعة أو أن يطلقها . واستمع الشيخ الكبير إلى شكوى المرأة ورأى ما فيها من الحق وأدرك الحالة النفسية لهذه المرأة المحرومة فوعدها خيراً وفى نفس الوقت دعا إليه شابين من خيرة طلابه وأمرهما بالسفر إلى مقر الزوج وحل المشكلة على أحد الوجوه الثلاثة السابقة . وسافر الشابان حتى لحقا بالرجل فى مقره فى ليبيا وعرضا عليه حكم أبى عبد الله فاستجاب الرجل للحق وانحلت المشكلة التى كانت تعانى منها امرأة بائسة أضر بها تهاون الزوج وحرمها إهماله استقرار النفس وطمأنينة الحياة .

٣ — كان يهتم لكل ما يعرض عليه من دقائق الأمور وجلائلها فيتولى الحكم فيها بفهم نير لحكم الإسلام من جهة ودراسة نيرة للنفس البشرية من جهة أخرى .

اقترض ينكول بن عيسى — وهو عالم مؤمن غزير العلم قوى الإيمان ولكنه كان مقلا كأكثر العلماء فى مختلف العصور — مبلغاً من المال من أحد الناس وتوفى قبل أن يتمكن من تسديد الدين .

واجتمع المشائخ لشأن من الشئون وكان فى الاجتماع صاحب الدين على ينكول فتذاكر القوم الفراغ الذى تركه ذلك العالم العظيم فقال صاحب الدين : إن لى عليه ديناً وقد مات ولم يوفه فضاع مالى . قال داوود بن يوسف : علىّ تخليص دين ينكول ، فقال سعيد بن إبراهيم : بل على قضاء دينه . فقال

محمد بن الخير : أنا أوسع الجميع مالا وأولى بقضاء دين ينكول . فلما رأى صاحب الدين حرص الجماعة على دفع ذلك الدين أدرك مقام الرجل وعرف ما فى مساعدته من خير وأجر ،فقال: لقد تركت مالى على ينكول . واستمسك كل واحد بموقفه وأصر عليه ، وأخيراً عرضوا القضية على أبى عبد الله . فقسم أبو عبد الله الدين على خمسة أقسام وطلب من كل واحد منهم أن يدفع خمساً إلى صاحب الدين ودفع أبو عبد الله معهم خمساً ، وترك صاحب الدين خمساً وهكذا انحلت المشكلة باشتراك الجميع بعد أن تشاد فيها ثلاثة من فحول العلماء .

٤ — كان رقيقاً حليما محبباً للخير . ولكنه مع ذلك كان قوى الشخصية مهاباً وكان لا يسكت عن منكر يراه فكان يعالجه باللين والموعظة الحسنة وقد يشتد على المخطىء ويصرح له بخطئه فى مجمع من الناس إذا خاف أن تصل أضرار الخطأ إلى الجماعة حتى يحترس الناس منها .

زار (واغلانت) فوجد بين أهلها تدابراً وتنازعاً فجمعهم وجعل يتحدث إليهم ليلم الشعث ويجمع الكلمة وكان فى الجماعة رجل من (لواتة) يسمى (أبد[1] الله) وكان أبد الله هذا من محبى الظهور والزعامة ، وكان هو من أسباب الفتنة والخلاف ، وكان يرى لنفسه عظمة وفضلا فراجع أبا عبد الله الفرسطائى فى بعض حديثه دون أن يسأله الإمام فالتفت إليه الإمام فى شدة المؤمن وقوته فى الحق وقال له :

« يا أبد الله ليس واحد أفضل من جماعة إلا رسول الله صلى الله عليه

---

(١) هو تحريف لعبد الله ويستعمل كثيراً عند بعض القبائل البربرية كاواتة ولطة فى القديم وجروف الحلق يثرب بعضها عن بعض أحيانا فى اللغة البربرية .

وسلم . اعلم يا أبد الله أن من يتكلم وقد احتيج إلى كلامه فقد ابتلى ببلية ، ومن يتكلم ولم يحتج إلى كلامه فقد ابتلى ببليتين » ، ثم استرسل فى توبيخه وتقريعه وبيان فضل الاتحاد والتعاون والذوبان فى مصلحة الجماعة حتى صار الرجل عبرة ، وبعد أن كان ينزع منزع الظهور والزعامة أصبح ينزع منزع الاستخفاء والاستتار واتحد الصف واتحدت الكلمة .

٥ — عندما يتمكن الانحراف بقوم ولا تجدى فيهم وسائل الوعظ والإرشاد والتوجيه فإنه يتخذ معهم موقفاً أقسى عليهم من ذلك .

كانت قبيلة بنى ورماز إحدى القبائل الضاربة حول أريغ قد انحرفت بسلوكها عن النهج السوى للمسلمين . فكانت تشتغل بالغارة ، وتقطع الطريق عن المسافرين وتبتز الأموال بالعنف والقوة من المسالمين إلى غير ذلك من أنواع الفساد الذى اعتادته بعض القبائل التى لم يتمكن الإيمان من قلوبها . فجمع الإمام أبو عبد الله أهل أريغ وحدثهم فى الموضوع . وعرض ما يرتكبه أولئك الجفاة المفسدون ، وشرح لهم مايقاسيه المسافرون. فقام إليه أحد كبار أريغ ومسموعى الكلمة فيهم فقال : وما نقدر عليه نحن ؟. فغضب الإمام لهذا الضعف المستخذى ، وقال له :

« إذا لم تقدروا أنتم على الضرب على أيدى هؤلاء المعتدين المفسدين ، فإننا نحن نقدر على أنفسنا » .

ومن العد ارتحل بأهله وتلاميذه ونزل بإيفران فى ضواحى وارجلان .

وتمادى بنو ورماز فى الفساد من قطع الطريق وسلب المارة . ففسدت أحوال أريغ وهجرها الناس لما يلحقهم من بنى ورماز هؤلاء من الأذى . وافتقد أهل أريغ ما كان يملأ مساجدهم ومجتمعاتهم من دروس العلم والوعظ

وما يقوم به أولئك المؤمنون من أنواع العبادة أطراف الليل والنهار . وغابت عنهم أفواج الطلبة الذين كانوا يغدون ويروحون بين بيت الله ومدارسهم وأمكنة إقامتهم . وهكذا تغيرت عليهم الأحوال مادياً وأدبياً ، فلا أسواقهم بقيت عامرة ولا مساجدهم ومدارسهم كما كانت . واجتمعوا ودرسوا الموضوع وعلموا أن ما أصابهم كان لسبب خلافهم لأبى عبد الله وهجرانه لهم .

فقرروا أن يبعثوا إليه وفداً يدعوه للرجوع . وتكون الوفد فعلا وذهب إلى أبى عبد الله فلما اجتمع الوفد بالإمام رأى أن يجرب معه الجانب المادى لعله يأتى بنتيجة فقال له قائلهم :

إن ضيعتك قد أقبلت غلتها وهى فى هذه السنة أجود منها فى جميع السنوات السابقة ، ومن الخسارة أن تتركها ولا ترجع إليها فى هذا الموسم الجنى . فأشار أبو عبد الله إلى شجرة أمامهم وقال لهم : « إن ضيعتى بالوصف الذى تذكرونه هى وهذه ( الزيتا )[1] عندى سواء .

إننى أصبحت بينكم فى حالة لا يرضاها الحر ، يقبل الناس علىّ من أطراف الأرض للاستفادة أو التعليم أو الزيارة فإذا بلغوا نواحى أريغ يعدو عليهم المفسدون فيقتلونهم أو يسلبون أموالهم » . وعدّ عليهم وقائع كثيرة . فلم يجدوا له جواباً ورجعوا آسفين إلى بلدهم ، وقرروا أن يطهروا أرضهم من الفساد ، فجدوا فى ذلك ونجحوا فلم تمض عليهم سنة حتى أمنت السبل ، وساد السلام ، وعمرت الطرق ، وعرف الدانى والقاصى بذلك .

---

(١) الزيتا : نوع من أنواع الشجر لا ثمر له ينبت فى السباخ والمياه الملحة ولا تأكله الحيوانات وليس له خشب يصلح للوقود أو غيره .

وكونوا وفداً جديداً يستدعى الإمام فلبى الإمام الدعوة ورجع إلى مكانه من بلاد أربغ .

٦ — كان من أحرص الناس على الاتحاد والتضامن والتعاون ، وكان أكره ما يكره الفرقة والشقاق ، وكان يمقت الأشخاص الذين يسعون إلى الخلاف أو يتسببون فيه . وكانت دروسه فى الوعظ والإرشاد تنصب على هذا الجانب ويضرب الأمثلة العديدة من واقع الحياة فى البلاد التى يعيش فيها ومما كان يقوله فى هذا الباب :

« مثل الجماعة كالخشبة المتينة المتماسكة ومثل الفرد الذى يستغنى برأيه ويدعو إلى الفرقة والخلاف كمثل الوتد الذى يضرب فى الخشبة .

فتفريق الجماعة يكون بسببه وذلك أنه إذا استبد برأيه فى أمر تنبغى فيه المفاوضة فإنه يكون حرياً أن يخطىء فإذا أخطأ فلابد من اجتماع الجماعة للنظر فى أمره ، فإذا أخذوا فى الكلام لم يعدموا من يقوم مغضباً للمخطىء يدافع عنه فيكون مخطئاً مثله ويكون بمثابة الوتد الثانى الذى يدق لشق الخشبة ، فإذا أرادوا أن يتكلموا عن الوتد الثانى لم يعدموا شخصاً ثالثاً يدافع عنه فيكون هذا الثالث بمثابة الوتد الثالث الذى يدق فى شق الخشبة . وحينئذ تتفرق الجماعة ، ألا ترى أن الخشبة بعد الوتد الثالث تصير اثنتين . فلا ينبغى للمسلم أن يستأثر برأيه فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال :

( من استغنى برأيه ضل . ومن هجم على الأمور عطب ) » .

٧ — كان كثيراً ما يعالج ما يحدث للجماعة من الخصومات والشقاق بالوعظ والإرشاد وضرب الأمثال . وقد يقسو عليهم فى أمثلتهم ومن ذلك قوله :

« أهل زماننا كالتيوس إن اجتمعوا تناطحوا وإن افترقوا تصايحوا » .

وكان يقول : « قطيعة الرحم كبتر العضو من الجسد لا يربط ولا يخاط ولا يناط » وكان يقول : « أهل زماننا كالأرض السبخة إن ابتلت أزلقت وإن يبست خدشت » .

٨ — كان يتأنى فى أحكامه ولا يتعجل ، ولعل أحسن مثل لذلك هذه القصة التى يقصها عن نفسه ويرويها الدرجينى قال :

« خرجنا فى حلقة زائرين أهل الدعوة فلما صرنا فى بعض بلاد الساحل ، خرج أهل المنزل فتلقونا وأدخلونا وأحسنوا نزلنا ، ودخل معنا رجل ممن كنت أعرفه من تلامذة شيوخى وممن قرأ معى وإذا هو قد لبس كساء حشيما ، وفى رجله قرق قلعى وعلى رأسه شاشية حمراء ، وفى يده مزراق ويرفعه ويضعه فأدخلونا المنزل ، وقد عزمت على هجران صاحبنا المذكور ، ثم إن الرجل دخل بيننا وأدخل معنا رجالا من أعوان الجبابرة ، فازددت عليه حنقاً ، وتضاعف غضبى عليه ، فأكلنا طعاماً إلى آخره وفرغت القصعة ، وجعل الفوار يتصاعد من قعرها ، ولم أر قبلها قصعة تفور بعد فراغ الطعام منها . وذلك لشره الأعوان ، وشدة أكلهم وقلة أدبهم . وكان ذلك مما زادنى حنقاً ، وقوّى عزمى على هجرانه . إلا أنه كان من لطف الله أن حبست نفسى ولم أعجل عليه . قال : فبعد انصرافهم أدخلنا بيتاً آخر ليس فيه إلا العزابة وأحضر طعاماً حفيلا وقال : كلوا فلعلنا نؤدى بعض حقوق الإسلام وأهله ، ويكفيهم ما تعلق بنا من طعام كنا نأكله من أموال أهل الدعوة فى حرمة هذا الإسلام . ثم قال : ما دعانا إلى ما ترون من مواكلتكم

غير الجنس إلا المدارة عليكم . قال : فانحل بعض ما اعتقدت ، ثم دعونا وانفصلنا إلى المسجد فلما كان وقت صلاة الأولى إذا بالرجل قد جاء فطلع وأذن فانحل بعض ذلك أيضاً ثم جاء فركع ما شاء الله ثم أقام الصلاة فلم يجد من يقوم ليؤم فتقدم هو وأم بالجماعة ، فانحل بعض ذلك أيضاً ثم دعا وقام وركع ما شاء الله ثم جلس وأخذ الكتاب وجعل يقرأ ويفسر ما أشكل فيه فانحل جميع ما اعتقدت عليه ، وحمدته واستحسنت حاله ، وحمدت الله إذ لم يكن لى إليه عجلة بنشاط ولا معاملة بمكروه » .

٩ — كان جم التواضع كثير الاهتمام بأمور الطلبة يعيش بينهم كواحد منهم ويغضبه أن يخص بشيء دونهم ، أو يؤثر عليهم . فإذا ما أهدى إليه شيء قسمه بينهم إن كان مما يقسم . وإلا أعطاه لصغارهم أو للمحتاجين منهم إليه . وكان يشاركهم فى الأعمال التى يقومون بها أثناء رحلاتهم وإقاماتهم يساعدهم على بناء الخيام ويجمع معهم الحطب ويتولى معهم تنظيف المكان وإعداده للإقامة والاستقرار .

ذكر ياجرين بن جعفرانه حين كان تلميذاً فى حلقة أبى عبد الله اجتمع الطلبة لتنظيف غار لهم يخرجون منه الكناسة وأكداس التراب فكان أبو عبد الله يشتغل معهم ويحمل التراب على عاتقه حتى يرميه فى المزبلة فقال له يا جرين : اقعد ياشيخ فإن الطلبة يكفونك . فأجابه الشيخ : أو يحملون عنى ذنوبى يوم القيامة . فقال له ياجرين : إذن فاحمل كثيراً كثيراً . وكان الشيخ ضعيف البنية يحمل ما يطيقه فأجابه الشيخ : لو كان رأيك يؤخذ به لأخذ به فى المرة الأولى .

١٠ — كان يحض الطلاب على المذاكرة والاستيعاب ويواجههم لى

مطالعة الأمهات والمراجع وعدم الاكتفاء بالمختصرات والملخصات من الكتب .

١١ — كان الإباضية يفزعون إليه فى جميع مشاكلهم وكانوا يطلبون منه أن يعين لهم من يقوم لهم بأمور دينهم أو أمور دنياهم ، وفى القصة التالية دليل على ما كان يتمتع به من ثقة الناس وإكبارهم له ورضاهم بأحكامه . احتاج بنو ورتيزلن إلى من يتولى أمورهم ، ويفصل مشاكلهم ، ويحكم بينهم بحكم الله فأتوا أبا عبد الله يطلبون منه أن يولى عليهم من يختاره لهم وفكر أبو عبد الله فى الرجل الذى يوكل إليه هذه المهمة التى تحتاج إلى العلم والنزاهة والدين . فاختار لهم الشيخ أبا الحسن بن أفلح تلميذ العلامة حمو بن اللؤلؤ وأرسله معهم فمكث فيهم سنين . يحكم بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ويقيم العدل فيهم وكان الرجل شديداً فى أمر الله لا تأخذه فى الله لومة لائم فسخط عليه جماعة ممن وجب عليهم الحق وتلمسوا مسائل ظنوا أنه أخطأ فيها ثم كونوا وفداً ذهب إلى أبى عبدالله يشكو إليه القاضى أبى الحسن وتضييعه الحقوق فأمسك الشيخ الوفد عنده وبعث إلى أبى الحسن فأحضره معهم وأجلس القوم فى حلقة واحدة ثم سألهم ما الذى نقمتم من أبى الحسن ؟. فقال قائلهم :

إن أبا الحسن يحكم بين بعض منا دون بعض . فقال أبو عبد الله : أكان ذلك يا أبا الحسن ؟. فقال : نعم .

قال أبو عبد الله : ثم ماذا؟. قالوا: حكم على رجل بصداق امرأة بغير إقرار ولا شهادة ، فقال أبو عبد الله : أكان ذلك يا أبا الحسن ؟. فقال : نعم .

قال لهم أبو عبد الله: ثم ماذا ؟ قالوا : اختصم عنده رجلان فى شفعة وأبطلها من يد القائم فيها. فقال له أبو عبدالله : أكان ذلك يا أبا الحسن؟: قال نعم.

قال لهم أبو عبد الله : ثم ماذا ؟ . قالوا : مات رجل يقر أنه أوصى بماله فى وصيته فاستأثر بها أبو الحسن . فقال أبو عبد الله : أكان ذلك يا أبا الحسن ؟ قال : نعم .

قال أبو عبد الله : ثم ماذا ؟ فنظر القوم بعضهم إلى بعض ولم يجدوا زيادة فسكتوا . فقال أبو الحسن : سأخبرك بما فعلت فيها يا محمد !

أيثبت الحكم فى الأرض المشاعة التى لم يتعين لها رب ؟

إن هؤلاء القوم حين دخلت هذه البلاد قالوا لى ما بين فلانة وفلانة مشاع بين بنى ورتيزلن . فجعلوا يعمرون هذه الأرض دون أن يسلم بعضهم لبعض فهو ما لم أحكم فيه بينهم .ثم قال : ما تقول فى رجل أقر بالنشوز ؟ فهل يحكم عليه بالصداق أم لا . قال أبو عبد الله : نعم . قال : اختصم أبى الخير وامرأته ثازوراغت فأقر بالنشوز فحكمت عليه بصداقها . ثم قال أبو الحسن : ما تقول فى نخل نبت فى أعلى مجرى العامة ؟ هل يحكم فيه بالشفعة لبعضهم دون بعض ؟ قال أبو عبد الله :لا .فقال : إن رجلين اختصما عندى فى نخلة هى فى مجرى العامة فطلبها رجل بالشفعة من مشتريها وهو واحد من تلك العامة فلم أحكم له بها . وأما أمر الوصية فإن الرجل الذى مات من بنى ورتيزلن فإنه استخلف امرأته على تنفيذ الوصية فقالت لى أرسل معى من يعلمنى كيف أنفذ هذه الوصية فأرسلت معها ولدى فبلغنى أنها تصدقت عليه بربع شاة لحماً ولم أره ولم آكله ثم قال: إن عندى كلاماً أريد أن ألقية إليك فقال له أبو عبد الله: دع كلامك فخلف أبو الحسن أن لا يتولى القضاء بينهم سبع سنين . واستبان للقوم مقدار خطأهم وخسارتهم فقاموا وأمسك أبو عبد الله أبا الحسن عنده يوماً كاملا يتأنس به ويراجع معه كثيراً من مسائل العلم ومشاكله وعندما ذهب أبو الحسن قال أبو عبد الله ليعقوب بن أبى القاسم : إن جيرانك يصارعون من لا يطيقون مصارعته .

١٢ ــ كان شديد الاهتمام بالتربية العملية لطلابه فهو يدربهم على القيام بمهام الأمور . فيقيم معهم الرحلات ، ويتولى فى حضورهم فض المشاكل ، ويشاركهم فى عمليات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويدربهم على العمل لفائدة الجماعة والذوبان فيها . وكان عندما يتخرج الطلبة من معهده ويعزمون على الرجوع إلى بلدانهم أفراداً أو جماعات يوصيهم الوصايا الكثيرة ومن الوصايا التى كان يحرص عليها ويقولها لكل متخرج عند وداعه الوصية الآتية : « ارجع إلى أهلك بسلامة الله فإن وجدت من تقدمه فى الأمور فتكتفى به فاتبعه ، فإن لم تجد ووجدت من تتعاون معه فتعاون على البر والتقوى ، فإن لم تجد ووجدت من يقتدى بك فى الخير فكن إماماً . فإن لم تجد من هؤلاء أخاً فالزم الطريق وحدك وجانب الناس » .

١٣ ــ كان أبو عبد الله عفيف اللسان ، عفيف اليد ، عفيف الضمير . وقد شهد له أبو الربيع فى الأولى فقال : كان أبو عبد الله إذا سئل عن أحد فإن علم خيراً قاله . وإن علم غيره سكت .

ولعل خير شاهد على عفة يده على كثرة ما مر بها من أموال ما يلى :

قال ولده أبو يعقوب يوسف : أوصى أبى بألف دينار ثم استكثرها فأوصى بخمسمائة دينار ثم قال لى : يا يوسف يابنى هذه وصيتى فأنفذها ولا جعلك الله فى حل إن دفعت زائداً على أربعة دراهم لشخص أى شخص كان . فإنما هى حوطة من أموال أهل الدعوة ، ما أطعمتكم منها عشاء ، ولا غداء . ولكن ربما أرادوا وجهاً فصرفتها فى غير الوجه الذى أرادوا .

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل هو شهادة أبى الربيع قال : إنما مثل أبى عبد الله كما قال الله تعالى : « **ولوا الى قومهم منذرين** »[1] .

---

(١) سورة الأحقاف : ٢٩ .

أحسب أن الخطوط السابقة كافية لرسم صورة باهتة لهذا الإمام العظيم ولعل تلك الصورة لا تتم إلا إذا أشرنا إلى الميدان الحقيقى الذى عاش للكفاح فيه طوال حياته لا يمل ولا يفتر ولا يتوقف إنه ميدان التربية والتعليم ومناهجه فى ذلك وهذا فى الحقيقة يحتاج إلى دراسة متوسعة وكتب مفردة لأن فى ذلك المنهاج إفراراً لكثير من الآراء التربوية التى نعتقد أنها حديثة وأنها آتية من الغرب وذلك كحالة توحيد اللباس والتربية العملية والرحلات المدرسية واشتراك الطلاب فى إدارة المدارس وغير ذلك من الآراء التى يفتخر الناس بها اليوم ولعل بعض شبابنا المتعلم يهتم بذلك ويقدم فيه الدراسة الكافية . أما مدرسته فى فترته الأخيرة فقد كانت تمثل المرحلة الجامعية وقد كان النظام يفرض على الطلاب أن يلتحقوا أول ما يلتحقون بالدراسة بمدرسة أبى يعقوب محمد بن يدر فيعلمهم القراءة والكتابة والآداب النفسية والسير وهذا يمثل المرحلة الابتدائية فى نظامنا الحديث ومنها ينتقلون إلى مدرسة الشيخ محمد بن سدرين فيدرسون عنده علوم اللسان من نحو وصرف وبلاغة ومنطق وأصول وعلوم الشريعة وتمثل هذه المرحلة المراحل المتوسطة من مراحل تعليمنا الحاضر ثم يلتحقون بمدرسة أبى عبد الله فيتخصصون فى المباحث العلمية ومنها يتخرجون إما إلى التدريس أو العمل فى ميادين الحياة العملية المختلفة بعد التخرج مباشرة ومنهم من يوجه إلى قيادة الناس بالتوجيه والإرشاد . وتمثل هذه المرحلة المرحلة الجامعية فى نظامنا الحالى وقد يستمر بعضهم فى المجال العلمى دراسة وتأليفاً .

ولد أبو عبد الله محمد بن بكر القرسطانى كما قلت سابقاً فى قرسطاء وعاش

حياة مليئة بالعلم والعمل وبلغ من قلوب الناس منزلة لم يبلغها أحد بعده ولا يزال مضرب المثل فى كل شأن من شئون المجتمع والحياة ولو لم يعمل شيئاً غير نظام العزابة الذى كان عند الإباضية فى المغرب بديلا لنظام الإمامة فيه جميع مزاياها وليس فيه أخطارها لكان عملا كافياً وتوفى رحمه الله سنة ٤٤٠ من الهجرة النبوية فى مدينة اجلو التى كانت تعرف بمدينة الصالحين ولا يزال قبره معروفاً إلى اليوم يزوره الناس للعبرة والذكرى .

obeikandl.com

# أبو محمد ماكسن بن الخير[1]

ولد فى عاصمة الدولة الصنهاجية من البلاد التونسية، بعد وفاة أبيه بشهور قليلة . وأصيب فى صغره - وهو ابن سبعة أعوام - فكفّ بصره . وكانت أسرته أسرة فقيرة مقلة . وإن كانت تعيش فى كرامة المؤمنين وعزة أنفسهم. كانت أم ماكسن عندما أصيب ولدها ببصره متألمة أشد الألم حائرة لا تعرف ما تصنع لتردّ على ولدها الحبيب بصره . وكانت لا تفتأ تسأل الناس علّها تجد دواء يردّ البصر على من فقده . ولكنها لم تجد . وذهبت يوماً إلى بيت المعز بن باديس سلطان أفريقيا ، وكانت تربطها بزوجه أم يوسف أواصر صداقة قديمة وعلاقات وثيقة منذ الصغر . وذهب الولد الأعمى بصحبة أمه .وحينما كانت المرأتان تثرثران فى مختلف الشئون كعادة النساء دائماً ، كان الصبى الصغير تارة يتسمع إليهما وتارة يلعب بما يجده بين يديه من إناء أوأداة وكانت أم يوسف لا تنفك تنظر إليه وتتأمله فأعجبت بخفة روحه ولباقته وذكائه وحسن تصرفه فى لعبه واقترحت على أمه أن تأخذه إلى الكتاب فإنه جدير أن يكون له فى المستقبل شأن .

ورجعت أم ماكسن بولدها ثم أخذته إلى مدرسة المدينة أو كتابها فحفظ القرآن الكريم فى وقت قصير ، وكان لذكائه وحدة ذهنه لا يسمع شيئاً إلا فهمه وحفظه . وحين ضاق الكتّاب عن مواهبه سافر إلى جربة والتحق بمدرسة أبى محمد ويسلان بن أبى صالح ، فكان أنجب طلابها ، وأذكى من يتلقى العلم فيها ، غير أنه كان حاد المزاج . سريع الغضب ،

(١) من علماء القرن الخامس ، ذكره البارونى فى الطبقة العاشرة .

لاذع النكتة حاضر البديهة ، عنيف الهجوم . فكان الطلاب يتضايقون منه ، ويودون لو تخلصوا من وجوده ، فكانوا يشتكون منه إلى شيخهم أبى محمد ، ويطلبون منه إبعاده عنهم ، وطرده من مدرستهم أو إرساله إلى مدارس أخرى ، ويلحون فى ذلك فيستمع الشيخ إليهم فى حنان ، ويطيب خواطرهم ويهدىء من ثورتهم ، ثم لا يفعل شيئاً مع ماكسن .

ويبدو أن الطلبة قد ملوا من عشرة ماكسن ، وكلوا من الشكوى إلى أبى محمد ، فقرروا أن يتفقوا من الموضوع موقفاً حازماً فذهبوا إلى أستاذهم مرة أخيرة وقد ملكهم الغضب فتكلموا بنوع من الشدة والحدة ، وعرضوا شكواهم على الشيخ . وقابل الشيخ ثورتهم بثورة ، وحدتهم بحدة ، ثم أفهم لهم أنه لن يطرد هذا الطالب النجيب الذكى ما دام راغباً فى الدراسة فأسقط فى أيديهم . ثم سألهم ما يشكون منه . قالوا : نشكو منه الخفة ، فقال لهم : لقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : بم تكون الخفة فى المؤمن ؟ فقال لهم : لغزارة . وقيل لابن عباس رضى الله عنه : إنك لخير لولا خصلة فيك . قال وما هى ؟ قيل الخفة . . . قال ابن عباس لناقده : عبتنى بخير الخصال ...

وهكذا استطاع أبو محمد أن يرد طلبته عن شكواهم وأن يقنعهم بأن فى موقفهم بعض الخطأ وأن ما كانوا ينتقدونه على زميلهم لا ينتقد .

وبقى ماكسن فى المدرسة واستمر فى الدراسة حتى تخرج وأصبح من الأعلام وكان طول حياته لا ينسى فضل أبى محمد ويسلان وكان لا يفتأ يتحدث فى مجالسه قائلا : لو سمع أبو محمد رجاء الطلاب وطردنى من مدرسته لرفعت برأسى وكنت فى غير الحق ، فضللت وأضللت ، وهلكت وأهلكت

وهو بهذا يعترف بما فى طبعه من الحدة والأنفة والاعتداد بالنفس . ولعل أغلب العميان كذلك .

كان أبو الربيع سليمان بن يخلف من الطلاب الصغار الذين يحضرون حلقة أبى محمد ويسلان . وكان أبو الربيع من أطيب الناس نفساً ، وأسهلهم خلقاً وأرضاهم خليقة ، وألينهم عريكة ، وأدومهم صحبة ، وأحسهم عشرة ، وأصبرهم على الأذى . فاتخذ من ماكسن رفيقاً وصديقاً وأخاً ، يطالع معه الدروس ، ويقرأ له الكتب ، ويحضر له ما يعده من تمارين ، ويساعده فى حل المسائل ، والرجوع إلى المصادر .

قال أبو العباس الدرجينى : « ولا جرم أن الشيخ أبا الربيع سليمان ابن يخلف كان مفتاح باب الخير عليه ، لأنه كان محاضره ، فكان ينشطه ويدربه ويحرضه ويقرأ عليه الكتاب . فإذا قرأ باباً رددا معاً مسائله ، هكذا كانت عادتهما وكان كل واحد منهما بَرًّا بالآخر حفياً به ، كان أبو الربيع كما ذكرنا لا يألوا جهداً فيما ينفع به صاحبه ، فلا يعرف له طريق مصلحة إلا تحراه ، وكان ماكسن على نحو ذلك فيما له عليه قدرة . حتى أن ماكسن يدعوه بالخؤلة مع كونه دونه ، وهذه الدعوة لأن أم ماكسن مزاتية من قوم أبى الربيع . واستمرت الزمالة والصداقة بين الشابين الذكيين وطالت وإن كانت لا تخلو من لحظات يقع فيها ما يقع عادة بين الإخوة والأصدقاء من حدة النقاش وبوادر الغضب والاستياء لا تلبث أن تزول آثارها . كانا يوماً يتذاكران باباً من أبواب المعرفة فى كتاب فقهى ، واختلفت وجهتا النظر منهما فى فهم المسألة وتمسك كل منهما بفهمه وتعصب له . ودافع عن رأيه بحرارة وطال بينهما النقاش واحتد حتى انفصلا شبه

متخاصمين وحضرت الصلاة وكان ماكسن إذا أراد الصلاة نزع ثيابه ولبس ثياب أبى الربيع لأنه يتيقن طهارتها بصورة أقوى لأنه لا يأمن أن يلحق ثيابه نجس دون أن يشعر به لعدم الرؤية . فلكى يبعد عن نفسه هذا الاحتمال أو هذا الوسواس كان يصلى فى ثياب أبى الربيع فلما حضرت الصلاة ذلك اليوم همّ أن يصلى فى ثيابه خوفاً أن يكون أبو الربيع قد وجد عليه . فصاح به أبو الربيع وطلب منه أن يلبس الثياب التى كان يلبسها حين الصلاة وقال له : صلّ بها عافاك الله فإنه لم يقع فى قلبى شىء بسبب نقاشنا . ولبس ماكسن ثوب أبى الربيع وصلى به . وكان وقوفه بين يدى الله ومناجاته له كفيلا بمسح آثار الحدة من نفسه وملء قلبه بالخلق الإسلامى المرضى .

بقى ماكسن فى جربة بعد أن ارتحل إليها من القيروان حتى أصبح علماً يشار إليه ثم ارتحل إلى وارجلان ـ وكانت فى ذلك الحين فى أيام عزها وازدهارها ـ فرحب به أهلها ، وأحلوه فى مقام كريم ولقى حفاوة من رجال العلم وإقبالا من الطلاب وإكراماً من جميع الناس . ومنها ذهب إلى الحج ، فزار مهد الإسلام وتشرف بالسير فى أكرم بقعة . وأدى الركن الخامس من أركان الإسلام وشهد البقاع التى كان ينزل فيها الوحى على رسول الله عليه الصلاة والسلام ثم رجع فمر هو وجمع من رفاقه على جزيرة جربة يؤدى حق الزيارة لتلك المرابع التى اغترف منها العلم وكانت له فيها ذكريات فى الشباب ، ثم عاد إلى وارجلان فاستقر وتزوج وأنجب وكان مرجعاً من مراجع العلم ، وشخصية من الشخصيات المرموقة فى المجتمع التى علا لها ذكر وشأن عند البعيد والقريب والموافق والمخالف .

عندما جاء ماكسن إلى وارجلان وجد هنالك ـ فيمن وجد ـ العلامة

أبا موسى عيسى بن أبى الحجاج وكان فى المرتبة العليا متانة دين وغزارة علم وسمو أخلاق فاتخذ منه ماكسن أباً وشيخاً وأخاً وصديقاً .

وهنأت الحياة لماكسن وأبنائه فى وارجلان حتى ورد إليها أبو العز ابن داوود وهوشخصية مرموقة محجوبة من أجلو جاء يتفقد إخوانه فلما عرف ما عليه حالة ماكسن جلس إليه وتحدث طويلا وعرف أن الشيخ قد استقر ، وأنه رضى بنوع الحياة التى يعيش فيها ، وكان ماكسن كما قد عرف القارىء ذكياً ألمعياً حساساً وكان يستمع إلى أبى العز فى كل ما يقوله متأثراً به فقال أبو العز : إنك ياماكسن فى رغد من العيش بما يضفيه عليك أهل وارجلان الكرام . وإذا أقمت على هذه الطريقة من الحياة يأكل أولادك تحف أهل الدعوة فإنك إن مت اقتسموا ريح الصبا .

وعملت هذه العبارة اللاذعة عملها فى نفس ماكسن وفكر فى الانتقال إلى أربغ ، وفزع إلى أستاذه وصديقه أبى موسى يطلب منه الحل لأنه ينوى الرحيل فدهش العالم الكبير ، وقال له : بل أطلب الحل من طلبك الحل وعزمك على الرحيل فقد أدخلت على قلبى روعة يجب أن تطلب بسببها الحل. ثم قال له : إننى لا آذن لك فى الرحيل وأنا حى ، فإذا مت وحضرت غسلى وتكفينى ودفنى فأنت بعد ذلك فى حل إن شئت أقمت ، وإن شئت ارتحلت . فصبر ماكسن وأقام فى وارجلان حتى توفى أبو موسى وحضر غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه . ثم نفذ قراره فانتقل إلى أربغ .

كانت وارجلان فى ذلك الحين من الثروة والغنى بحيث لا يستطيع أن يمتلك فيها أمثال أبى محمد ماكسن شيئاً . وذلك مالاحظه أبو العز فإنه يعرف أن أهل وارجلان ـ وهم على ماهم عليه من غنى وثروة ـ لا يبيعون شيئاً من

الأصول وإذا خطر لأحدهم أن يبيع شيئاً منها باعه بسعر مرتفع ليس فى طاقة ماكسن وأضرابه . ولذلك لا يمكن لماكسن أن يخلف فى هذا البلد شيئاً لأولاده ولذلك نصحه أبو العز بالرحيل لاسيما وأن وارجلان كانت مشحونة برجال العلم والدين وأنهم لا يحتاجون إلى ماكسن من هذا الجانب . أما وادى أريغ فقد كانت فى ذلك الحين فى حالة سيئة من جميع النواحى ناحية الدين وناحية العلم وناحية الاقتصاد ووجود أمثال أبى محمد ماكسن فيها يفيدها فى المجال الدينى ، وفى المجال العلمى ويستفيد هو منها اقتصادياً لأنه يستطيع أن يشترى فيها أملاكاً تدر عليه غلالا . فلما انتقل أبو محمد ماكسن إلى أريغ واستقر بها ، وقد بقيت بيده أموال صالحة مما كسبه فى وارجلان وغيرها استطاع أن يشترى أملاكاً تغل عليه وعلى أبنائه ما يكفى حاجتهم ويعيشون به فى كفاف مستورين .

وزاره أبو العز فى وادى أريغ كما زاره من قبل فى وارجلان فوجده قد استقر اقتصادياً ، ولكن أريغ كانت فى حالة إدبار من الناحية العلمية قد قل فيها العلماء وتعطلت أكثر المدارس . فقال أبو العز : أقم هكذا يا ماكسن حتى تموت فيبيع أولادك كتبك ، ووقعت الكلمة من نفس ماكسن موقعها ، وأحدثت فيه أثرها القوى وعلم أنه قد بنى لأولاده ما يستقرون عليه فى دنياهم ، ولكنه أغفل أمر آخرتهم ، فهو تأخر عن تعليمهم القراءة والكتابة وبعض فنون العلم وليس فى أريغ من يقوم لهم بذلك ابتغاء وجه الله وقياماً بالواجب المفروض على العلماء فاستأجر لهم مؤدباً يؤدبهم ويعلمهم مايعجز ماكسن عن تعليمهم إياه كالخط والحساب وما شابه ذلك .

كان أبو محمد ماكسن بن الخير ، رغم فقدانه للبصر ـ لا يسكت لمنكر يقع وكان يحارب البدع ويتتبع مواقعها حتى يقضى عليها ، وكان

يحارب الجهل بدين الله فلا ينفك عن إلقاء الدروس للخاصة والعامة، وكثيراً ما تكون تلك الدروس حملات عنيفة ضد الانحراف والبدع والتهاون، سواء أكان ذلك فى القول أو فى العمل أو فى العقيدة.

واستطاع بما أوتى من قوة إرادة وصدق عزيمة أن يتفوق بأعماله عن المبصرين. كان ما كسن حر الفكرة ينتقد على بصيرة من أمره وهو حتى حين يفتى يفتى بالأقوال المعمول بها عند الفقهاء إلا أنه لا يخفى نقده لتلك الآراء وعدم اقتناعه بوجاهتها وكان كثيراً ما يضرب المثل لتناقض آراء الفقهاء بالمسائل الثلاثة الآتية :

الأولى : يقول الفقهاء إن المسلم لا يحل له أن يقذف ولو هدد بالقتل أى أنه لو خيره ظالم بين أن يقتله أو يقذف بريئاً وجب عليه أن لا يقذف ولو قتل، ونص العبارة عندهم « يموت الرجل ولا يقذف » ثم إنهم أجازوا له فى حالة الخوف أن يقول إن هذا الشخص ليس ابن فلان أو ليس من القبيلة الفلانية. وهذا نفى واضح للنسب. ويرى ما كسن أن لا فرق بينهما.

الثانية : قولهم « يموت المسلم ولا يتعرى ». يعنى أن المسلم لا يجوز له أن يتعرى أمام الناس ولو أدى استمساكه بستره إلى الموت ولو خير بين التعرى والقتل وجب عليه أن يختار القتل. وأجازوا له أن يتعرى للطبيب وما كسن لا يرى الفرق بين المسألتين على أن الموت فى قضية الطبيب مظنون فقط.

الثالثة : يقول الفقهاء إن على « زوجة المفقود أن تعتد عدة المتوفى عنها زوجها ثم أوجبوا أن يطلق عنه وليه ».

والذى يقتضيه الرأى من الزاوية التى ينظر منها ما كسن فى القضية

الأولى: أنه ما دام لا يحل للمسلم أن يقذف ولو فى حالة الإكراه . وأنه يستسلم للموت ولا يقذف إذا أرغم على ذلك فكيف يجوز له أن ينفى النسب لمجرد الخوف ونفى النسب هو عين القذف . وحرموا عليه التقية فى الهلاك المحقق وأجازوها له فى الهلاك المتوقع .

أما فى المسألة الثانية : فما دام لا يجوز للمسلم أن يتعرى ولو أدى به ذلك إلى القتل فكيف يباح له أن يتعرى للطبيب والقابلة وقائس الجروح ، وأقصى ما يؤدى إليه عدم التعرى فى هذه الحالات إنما هو الموت أو ضياع قليل من المال فكيف حرموا عليه التعرى وحكموا عليه باختيار القتل وأوجبوا عليه أن يضع عنقه فى المشنقة ولا ينكشف للناس ثم أجازوا له أن يتعرى لضرر متوقع قد لا يؤدى إلى الموت وذلك أمام الطبيب والقابلة والقائس .

أما فى المسألة الثالثة : فما دام المفقود قد حكم عليه بالموت وطلب من زوجته أن تعتدّ عليه عدة الوفاة كان المعقول أن تخرج بمجرد انتهاء مدة العدة فلماذا أوجبوا عليها أن لا تخرج إلا إذا طلق عنه وليه والمعقول فى النظر أنه إذا حكم على المفقود بالوفاة فإن على زوجته أن تعتد عدة الوفاة وتخرج . أما إذا حكم عليه بالطلاق فإنها تعتد عدة الطلاق وتخرج ، فما الذى يجمع الوفاة والطلاق فى حالة واحدة .

وقد ناقش أبو العباس الدرجينى هذه المسائل الثلاثة على طريقة الفقهاء ، وحاول أن يرد على ما كسن فقال : « أما الأولى فمن الكذب المباح لا فى باب القذف، والثانية ضرورة تعارض فيها حكمان فلابد من أرجحهما، والثالثة أخذوه فى العدة بالحوطة ، ونظروا فى تسريح المرأة خشية الضرار وجعلوا التطليق إلى الأولياء بناء على أنه لا حكم على غائب » . وواضح أن هذه الأجوبة التى رد بها أبو العباس هى نفس التعاليل الموجودة فى كتب الفقه .

ولا شك أن ما كسن درسها غير أن تعليلاتها لم تقنع عقل ما كسن المتحرر البحاث . وكأنه يقول لماذا يباح الكذب فى وجه ولا يباح فى الوجه الآخر من قضية واحدة . ونفس الاستشكال يتوجه على المسألة الثانية فإنهم حين أباحوا لإنسان أن يتعرى للطبيب خوف الهلاك كان عليهم أن يبيحوا له أن يتعرى أمام غيره خوفاً من الهلاك . وفى المسألة الثالثة يبدو أنها لتخفيف الضرر عن المرأة إما أن تحكم بموت الزوج وتعتد الزوجة وتخرج . أو لا تثير قضية الوفاة ويطلق ولى الزوج وتعتد المرأة عدة المطلقة وتخرج أيضاً . دون أن نربطها بحكمين وفاة وطلاق ، وهما شيئان لا يجتمعان أبداً والموضوع مبسوط فى كتب الفقه بأوسع من هذا .

لم يترك ما كسن فيما أعرف مؤلفات ، ولكن كتب الفقه عند الإباضية لا تكاد تخلو من أقواله وفتواه .

وقد كان الرجل من النشاط والحركة وحسن السيرة فى المرتبة الأولى وحينما كان فى وارجلان وفى أريغ كان يشترك فى جميع المسائل العامة والخاصة حتى إنه كان يذهب فى الوفود هنا وهناك ، بل إنه عندما يقع عدوان على أهل بلده وتؤخذ منهم أموال ، يذهب مع الذاهبين لاسترجاعها ، وحينما كان غيره يعتمد على القوة والشجاعة البدنية ، كان هو يعتمد على الحجة والإقناع وحسن التلطف والحديث وقد روت كتب التاريخ كثيراً من الأحداث التى اشترك فيها ، وخرج إلى غُزاة استاقوا أنعاماً فلما بلغهم مع رفاق له ، استطاع أن يسترد منهم ما أخذوه بألطف الوسائل دون أن يحتاج إلى استعمال العنف وإراقة الدماء ، وزيادة إزكاء نار العداوة والفتنة بين أهل الحضر وأهل الوبر .

# أبو زكرياء الهوارى[1]

أبو زكرياء بن وكين الهوارى ، شخصية من الشخصيات اللامعة . التى جمعت بين الإيمان الراسخ والعقل الراجح والعلم الغزير والفهم السليم والدين القويم .

كان مقصداً لطلاب العلم ، ومرجعاً للعلماء ، يعدون المشاكل العلمية ويهيئونها له ، حتى إذا حضر ألقوها عليه فوجدوا الجواب المقنع ، والحل الصحيح ، والرأى السديد .

جلس إليه يوماً أبو محمد عبد الله بن محمد فى جمع من المشائخ والطلاب وقال له : لقد بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال لأمير المؤمنين على بن أبى طالب : ( هلكت فيك يا على فئتان ، محبك المفرط ومبغضك المفرط ) فما معنى الحديث :

قال أبو زكرياء على الحين : صدق رسول الله ﷺ ، فأما الذين هلكوا بإفراطهم فى حبه فهم غلاة الشيعة الذين قالوا فى على مثل ما قال النصارى فى المسيح عليه السلام ، وزعموا أنه نبىء وأنه حى لا يموت وأنه الإمام المعصوم يجوز له تبديل الكتاب والسنة ، وأنه أولى بالخلافة من الصديق والفاروق ، وأن الأمة كفرت حين ولت أبا بكر ولم تول علياً ، إلى آخر ما ذهب إليه أولئك الغلاة .

وأما الذين هلكوا بإفراطهم فى بغضه فهم غلاة الصفرية ومن لف

---

(١) من علماء القرن الخامس ، ذكره البارونى فى الطبقة العاشرة .

لفهم من الذين زعموا أن كل معصية شرك ، وأن الإمام علياً حكم الضالين وقتل المسلمين فهو قد ارتكب الكبائر بذلك ، وحكموا عليه بالشرك .

وهكذا صح قول رسول الله ﷺ حين أخبر أن طائفتين تهلكان ؛ إحداهما بسبب إفراطها فى حب على ، والأخرى بسبب إفراطها فى بغضه .

أما المعتدلون من المسلمين الذين يضعون الإمام علياً فى موضعه من أصحاب رسول الله ﷺ فأولئك من الهلاك ناجون إن شاء الله .

كان أبو زكرياء الهوارى عالماً واسع الاطلاع ، وكان محققاً متثبتاً ، وكان يتمسك بالأساليب العلمية المعروفة فى ذلك الحين ، وقد ذكر أن أبا محمد عبد الله كان فى مسجد أجلو يلقى درساً فى شرح الحديث النبوى ، وقد جلس بين يديه أحد الطلبة يقرأ الأحاديث النبوية الشريفة من مسند أبى صفرة عبد الملك بن صفرة فكان أبو محمد يتجاوز رجال السند ولا يذكرهم وإنما يعيد الحديث ثم يتناوله بالشرح والتحليل حسبما هو معروف من طريقة التدريس فى المساجد الإسلامية وكان أبو زكرياء الهوارى فى ناحية من نواحى المسجد يستمع إلى الدرس فعز عليه أن لا يذكر الشارح أسماء أولئك الأعلام الذين بلغوا إليه رسالة الإسلام فصاح به من مكانه فى صوت قوى : مالك لا تذكر أئمتك ؟ . وكانت هذه الصيحة الفوية المنبعثة من بعض جوانب المسجد فى لهجة العتاب المركافية لأن تحمل أبا محمد على الرجوع إلى الحق وأصبح بعد ذلك حين يقرأ عليه الطالب حديثاً من الأحاديث يعيد هو الآخر السند ذاكراً رواة الحديث واحداً واحداً حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هذه القصة البسيطة تحمل مغزى عظيما من أخلاق أولئك العالقة

العظام فهذا عالم يتصدر المجلس للتدريس فى مسجد عامر . ينتقده عالم آخر — جالس فى ركن من المسجد — علناً جهاراً على مسمع الناس وبصرهم ، فلا يملك إلا أن يستجيب للنقد ويعمل به . دون أن يثور أو يغضب أو حتى يتألم . ذلك لأن رائد القوم فى ذلك الحين إنما هو الحق واتباع الحق والعمل بالحق . ولا يهمهم الطريق الذى يسلكه أو الأسلوب الذى وصل به .

أحسب أن هذه القصة لو وقعت اليوم لنتجت عنها أسوأ الآثار . وأحسب أن أى واحد من أولئك الذين يتصدرون لإلقاء الدروس فى المساجد لو ارتفع إليه صوت ناقد من زاوية المسجد يأمره أو ينهاه لنتج عن ذلك مشكلة وربما وصلت إلى ساحة القضاء ، ولملأ فضيلة الشيخ الدنيا ضجيجاً وعجيجاً . واعتبر النقد عدواناً وقع عليه وتشويهاً لسمعته ، ونيلا من كرامته العلمية . وما إلى ذلك مما يتحذلق به أقزام اليوم ولعل أوسعهم صدراً من يقول إن النقد البناء لا يكون أمام الناس ووسط الجماهير وإنما يجب أن يصدر فى همسة خفيفة أو قولة لطيفة فى خلوة هادئة حسبما تقضيه الآداب العامة وأساليب التربية الحديثة التى تحذر حتى المدرس أن يجرح عواطف تلميذه الرقيقة . وتلزم حتى الأب أن يختار الكلمات التى يوجهها إلى ولده الصغير .

كان أبو محمد عبد الله يشترك مع أبى محمد ماكسن فى المذاكرة والمطالعة وكان ماكسن أكبر سناً وأغزر مادة وأوسع اطلاعاً وأحدّ ذكاء فكان أبو محمد يعتمد عليه ويستعين بفهمه ، وعند ما تعترضها مشكلة تسعصى على أفهامهما يقول ماكسن لزميله دعها حتى يأتى صاحب المشكلات أبو زكرياء الهوارى ، وكان أبو زكرياء إذا حضر إلى مجلس العلماء والطلبة وجدهم قد ادخروا له عدداً من المشاكل العلمية فيلقونها عليه واحدة بعد الأخرى فيجدون عنده الحل المرضى والجواب الشافى .

وكان أبو زكرياء مع علمه الغزير قوياً فى دين الله شديداً فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان شجاعاً صريحاً عنيفاً .

ذكر المؤرخون أن أيوب بن حمو كان يلى أمر الناس من جماعة تينوال وأنه انحرف عن السيرة التى كان يحافظ عليها المسلمون ، فانقسم الناس بسبب ذلك إلى قسمين قسم ينتصر له ويبرر انحرافه ، وقسم ينتقد ذلك ويعيبه ولكن فى تستر وخفاء ولما بلغ ذلك أبا زكرياء أمرهم أن يعقدوا اجتماعاً فى بعض المساجد ليناقشوا القضية واجتمع القوم فعلا فى مسجد « تاهسّت » وكان أيوب حاضراً فرأى بعض الطلبة أن يمهد للموضوع بقراءة فصل من كتاب فى الوعظ والإرشاد وأخبار الماضين ريثما يحضر أبو زكرياء ، ولما حضر وجد الطالب يقرأ قصة أحد الزهاد فى زمن سيدنا موسى عليه السلام ، فصاح به أبو زكرياء: دعونا من البله الذين تمتلىء بهم الجنة . وهيا بنا إلى من يثقب الخرزة بذكائه . يعنى أيوب بن حمو واتجهت الأنظار إليه وإلى أيوب ولم يزل به يلقى عليه زواجر الوعظ والإرشاد ، ويوجه إليه قوارع اللوم والتوبيخ ، ويحمله مسئوليته ومسئولية أتباعه من جماعة تينوال حتى استجاب أيوب للحق ، وتاب واستقام وأعلن أنه سيحافظ على النهج القويم والسيرة الطيبة ، وبذلك رجع القوم إلى بعضهم ، وقاموا من المسجد وهم يد واحدة .

كان أبو زكرياء يقوم مقام المفتى والقاضى والحاكم وكان الناس يرجعون إليه فى قضاياهم وخصوماتهم فكان يفصل المشاكل ويوصل الحقوق وقد يستعمل بعض العنف والشدة إذا اقتضى الموقف ذلك .

اجتمع عدد من المشائخ مع أبى زكرياء فى (أجلو) فأقبل عليهم شاب يشكو

أباه ويذكر للمشائخ أنه ماطله فى دين له عليه . وكان الأب ممن يعزى إلى الدين والعلم والصلاح ، فاستدعاه المشائخ وألزموه بدفع الدين إلى صاحبه ولكن الرجل فيما يبدو كان لا يريد دفع المال إلى ابنه . وكان يحسب أن ذلك من حقوقه عليه . فوضعوه فى الخطة ، وحكموا عليه بالحبس حتى يدفع الدين أو يطلق صاحب الحق سراحه . وبقى الرجل فى الحبس أياماً فبلغ الخبر إلى ماكسن بن الخير فى تينوال وكان قوياً فى دين الله لا يخاف ولا يرهب فجاء إلى أجلو وحضر مجلس المشائخ وصاح فيهم :

علام يحبس الوالد فى مال ابنه ؟ وكان فى إمكان أبى زكرياء أن يدخل مع ماكسن فى مناقشة علمية يبرهن فيها على رجاحة ماذهب إليه وحكم به هو والمشائخ . ولكن أبا زكرياء فضل أن يقف موقفاً صارماً عنيفاً مع ماكسن وقال له : لقد حكم بها أبو عبد الله محمد بن بكر فى واغلانت وحكم بها هنا فى أجلو ، ونحن نحكم بها ، ولا يخرج من الحبس حتى يدفع الدين أو يسرحه ولده .

وسكت ماكسن أمام هذه القوة التى جابهه بها أبو زكرياء ، واقتنع حين أخبره أن الحكم بمثل هذا قد جرى به العمل من قبل فى الأحوال المشابهة .

وقضية الأموال بين الأب والابن والزوج والزوجة قد أخذت من جهود العلماء قسطاً غير قليل فى مختلف العصور .

هذه أحاديث غير منسقة جمعناها عن أبى زكرياء الهوارى آملين أن تعطى صورة إذا لم تكن كاملة الوضوح فهى مميزة له عن صور غيره من الأفذاذ .

# أبو محمد اللواتى(١)

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن ناصر بن ميال بن يوسف اللواتى كان جده يوسف من رجال الشورى الذين يرجع إليهم الإمام أفلح حتى حسب بعض المؤرخين أنه من وزراء الإمام . أما جده ميال فقد كان عاملا له على نفزاوة وما يليها من بلاد الجريد ، أما والده أبو عبد الله محمد بن ناصر فقد كان من سكان برقة وكان من أكبر أغنيائها . يملك أعداداً وافرة من الأنعام ينتقل بها من مكان إلى مكان فى أرائى برقة الخصبة ويعيش معها عيشة الرحّل البداة . فلما ولد له عبد الله حاول أبوه أن يعلمه وأن يربيه تربية إسلامية نظيفة وأخذ الصبى مبادىء العلوم عن والده فعرف بعض قواعد اللغة العربية وأصول الشريعة الإسلامية ولكن عبد الله لما شب لم ترقه حياة البادية وما يكتنفها من شظف وجهل ، ولذلك فما تقلد زمام الأمور حتى ارتحل من برقة يسوق أمامه قطعان الماشية متجهاً إلى الغرب ووصل إلى بلاد أريغ سنة ٤٥٠ وعمره ثمانى عشرة سنة . فرتب للماشية رعاة يعيشون بها فى البادية أما هو فقد التحق بحلقة يزيد بن مخلف الزواغى . تاركاً حياة البداوة والعيش مع الحيوان لمن تستهويهم مناظر الطبيعة الحرة المنطلقة .

كان مستواه العلمى عندما التحق بحلقة الزواغى أقل مما يبدو عليه تكوينه الجسمى ذلك أنه لم تتوفر له وسائل الدراسة فى صباه وشبابه المبكر فلما التحق بالحلقة اضطر أن يطوى المراحل الدراسية بسرعة حتى ينسجم مع أقرانه فى السن .

---

(١) من علماء القرن الخامس ، ذكره الباروني فى الطبقة العاشرة .

كان أبو محمد ذكياً حاد الذكاء حفاظاً قوى الحافظة سريع الفهم كثير الاجتهاد شديد الرغبة فى الاستفادة ، فاتخذ لوحاً طويلا يبلغ طوله ضعف أطوال ألواح زملائه من الطلاب وكان يملؤه كتابة وكان يكتب تحت القرآن الكريم فى أسفل اللوح بعض المتون الفقهية واللغوية وبعض الآثار والسنن والقطع الأدبية .

وكان سرعان ما يحفظ ذلك جميعاً . ويعرضه على أستاذه بسهولة ويسر ، فلم يلبث طويلا حتى لحق الأذكياء من زملائه وتفوق على المتوسطين والمتخلفين منهم .

عرض يزيد بن يخلف على طلابه أن يقوموا بجولة يزورون فيها إخوانهم فوافقوا وتحدثوا فيما بينهم عما ينبغى لهم أن يقولوه . وكان فيما قرروه أن يظهروا بمظهر واحد فلا يختلفوا فى أى شىء حتى يعودوا إلى مدرستهم .

وبدأت جولتهم الموفقة من بلد إلى بلد حتى بلغوا أجلو فخرج إليهم العلامة ماكسن واستقبلهم أحسن استقبال ، وفرح بهم أشد الفرح وأكرمهم غاية الإكرام وحادثهم بأحاديث شيقة ممتعة فى السيرة والتاريخ وأخلاق المسلمين فأعجبوا به وأحبوه فلما ودعهم أبو محمد ماكسن وخرج عائداً إلى منزله لحق به عبد الله اللواتى وأخبره أن الطلبة فى حلقة الزواغى قد اتفقوا أن لا يفترقوا ، فهل يجوز له أن يفارقهم إذا رأى فى ذلك مصلحة .

فقال له ماكسن : إنما خلقنا الله أحراراً لنملك أمورنا فيما لنا فيه مصلحة . فتركهم اللواتى والتحق بحلقة ماكسن وكان من أنجب من درس عليه .

وهب الله أبا محمد مع الذكاء والعبقرية والرغبة الشديدة فى العلم نشاطاً وحركة وخفة روح تجعله محبوباً من كل من يعاشره ، وكان لا يتعب من العمل ، ولا يسأم من السفر ولا تحول دون رغباته المسافات الطويلة ولا المهامة البعيدة الشاسعة ، ولعل للنشأة البدوية أثراً فى ذلك .

بعد أن أتم دراسته على الشيخ ما كسن رجع إلى بلده تينوال ليقوم بالرسالة المقدسة رسالة التعليم والتوجيه ، فمر به الشيخ سليمان بن مدرار النفوسى فسأله أبو محمد من أين أقبل فأخبره أنه جاء من قلعة حماد ، وأنه ترك فى سوقها كتاباً فى تفسير القرآن الكريم تأليف الإمام عبد الرحمن ابن رستم ينادى عليه . فما أتم سليمان كلامه حتى عزم أبو محمد على السفر إلى القلعة للبحث عن الكتاب واستعد لذلك فأخذ شيئاً من البضاعة حتى يخفى السبب الحقيقى لسفره ويظهر كأنه أقبل على القلعة للتجارة ، وليس له فى الواقع همٌّ غير الحصول على ذلك الكتاب النفيس الفريد ـ كما أنه يسعى أيضاً إلى الحصول على غيره من الكتب النادرة . وأقام فى قلعة حماد وطال به المقام وهو يتلطف ويسأل ـ فى استخفاء ـ عن مصير ذلك الكتاب حتى عثر على رجل متفقه على مذهب النكار ـ وكان أهل قلعة حماد فى ذلك الحين على طائفتين : نكارية ومالكية ـ فقال له الفقيه النكارى : اطمئن يا عبد الله فقد بيع الكتاب ـ ووقع فى يدٍ لا يخرج منها ولا يمكن أن تراه فابحث إن شئت عن غيره .

واستمر أبو محمد فى مهمته فى جمع الكتب وهو إن لم يتحصل على تفسير الإمام فقد تحصل على مجموعة قيمة من الكتب الأخرى ، وأرسلها مع قافلة ذاهبة إلى وارجلان . فأخذت القافلة فى الطريق وأخذت الكتب فيما أخذ

من أموال القافلة وأمتعتها . وضاع ذلك المجهود العظيم .

ولما علم أبو محمـــد بالنكبة أطال إقامته فى القلعة واستمر فى التقاط الكتب مرة بالشراء ومرة بالنسخ حتى تحصل على مجموعة أخرى لا تقل قيمة عن المجموعة الأولى .

وبينما كان أبو محمد يفكر فى الرجوع خطر لأمير القلعة أن يجهز جيشاً لمحاربة بعض أمراء أفريقيا فسر أبو محمد بذلك واندس فى وسط الجيش وسافر مع العسكر ، وعندما كان بالطريق لاحظ أحد قواد الفرق حرص أبى محمد على الصلاة واستعداده لها واحتفاله بها فقال له العسكرى ماذا تصلى ياعبد الله وأنت تعلم لماذا نحن خارجون : وإلى أين نحن ذاهبون وكان يظنه فرداً من أفراد العسكر فقال له عبد الله : اشتغل بنفسك يا إنسان . واستمر الجيش فى طريقه حتى بلغ واغلانت فتحين غفلة منهم وانفلت هارباً . وارتحل الجيش إلى إنجاز مهمته كما كلفته قيادته .

استراح أبو محمد أياماً هناك وعرف أهل واغلانت ما أصابه فقرروا أن يجمعوا مبلغاً من المال يدفعونه إليه تعويضاً عما ضاع منه قال يتحدث عن نفسه : « فسمع شيوخ واغلانت بما أصابنى فى الكتب فاجتمعوا وأجمعوا أمرهم على أن ينظروا فى إعانتى بقدر ما أصيب حتى يخلفوه على . ـ فالله يحسن عونهم ويخلف عليهم ـ فلمـــا أحسست بالذى عزموا عليه أردت الخروج فى خفية ، فخرجت فى الهاجرة ولم يشعر بى أحد إلا وأنا خارج البلد ، فوصلت تنوال سالماً والحمد الله رب العالمين » .

كان بعض أهل قلعة حماد كما قلنا سابقاً على المذهب المالكى والبعض الآخر على المذهب النكارى ، وكان التعصب والخلاف بينهم على أشده فلما دخل أبو محمد إلى تلك المدينة كانت طبيعة عمله تقتضى أن لا يسخط عليه

أحد الفريقين . ولذلك فقد كان يقف منهما مواقف يحاول أن تحوز رضاهم جميعاً ويقص علينا هو نفسه بعض أخباره فى القلعة فيقول : « وكان فى القلعة حينئذ رجل من أهلها يعرف بمحمد بن عصمة متفقه مدرس عليه حلقة ، فكنت أحضر مجلسه وأعود من جملة أهل الحلقة ، فحضرنا عنده يوماً فقال لابن له صغير : سمعت أن غنما لبنى ينجاسن دخلت السوق . وما ضرنا لو تجتنب الشراء من السوق ثلاثة أيام ، ثم لاحرج بعدها فى الشراء . قال أبو محمد : فأعجبنى ما قاله » .

وقد كان جلوس أبى محمد إلى ذلك الفقيه الطيب الورع ، واستماعه إلى دروسه ومواظبته عليها مبعث ارتياح عند المالكية من سكان القلعة عموماً .

وكان ذات يوم فى جمع من أصدقائه الطلبة يتحدثون فمر بهم أحد معارفه من النكار فسلم عليه فرد أبو محمد السلام . فلما انصرف النكارى عتب عليه أصدقاؤه ويقص علينا هو نفسه القصة فيقول : « ... فلقينى الرجل النكارى فسلم على فرددت السلام . فلما انصرف ، قالوا لى : مالك تسلم على مثل هذا ؟ فقلت لهم : مالكم أنتم تسلمون على اليهود وهم مشركون ، ولا أسلم أنا على رجل من أمة محمد ﷺ فأفحمتهم ولم يجدوا جواباً » .

لقد كان أبو محمد عالماً أديباً وكان واسع الاطلاع غزير المادة حاضر الشواهد لا يجرى الحديث فى شجن من شجون الحياة إلا أنشد عليه شاهداً من شواهد الأدب العربى ودلائل مختارة من الشعر ، مر عليه جماعة من المشايخ والطلبة فوجدوه يشتغل بيده لنفسه فعاتبوه وتمنوا أنه لو ترك ذلك إلى غيره من خادم أو ولد فأنشد لهم قول الشاعر :

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضى
تموت مع المرء حاجاته وحاجة من عاش لا تنقضى

وقص عليه بعضهم ما ينصب عليه من ظلم وعدوان بسبب السلطان الجائر والحكم الظالم . فأنشد له قول الشاعر :

إذا ما خفت فى أرض مضيقاً فشدّ اليعملات إلى سواها
فإنك واجد أرضاً بأرض ولست بواجد نفساً سواها
فنفسك فز بها إن خفت عنها وخل الدار تبكى من بناها

ورأى شخصاً يحاول ما لا يستطيع ويتعاطى ما لا قبل له به فأنشد قول الشاعر :

ومستعجل للحرب والسلم حظه فلما استدارت كل عنها بحافره

ورأى صور التعامل بين الناس وتقدهم لمن لا يستفيدون منه واتجاههم إلى من يبذل لهم المال فإذا نفد ما بيده قلبوا له ظهر المجن وضحكوا عليه وسخروا منه فأنشد قول الشاعر :

إذا اقتصد الفتى فى المال قالوا بخيل لا يهش إلى المعالى
وإن هو سامح الأقوام جوداً فيالك فيه من حسن المقال
خداعاً يحلبون نداه حتى إذا عرّوه من نشب وصال
فعادوا بعد تقديس لشتم وصار بعد مذموم الفعال
كفى ابن آدم تجربة وصبرا به وبأهله فى كل حال
أرى لك أن تمد يديك قصداً بلا سرف ولا إمساك غال

وهكذا كلما مرت به حالة أنجدته حافظته القوية التى لا تنسى بشاهد من

الأدب العربى إن كان المجال مجال أدب أما إذا كان المجال مجال دين فقد علمت أنه حفظ كتاب الله وحفظ كثيراً من السنة النبوية المطهرة وهذا الزاد هو عدته فى دروس الوعظ والإرشاد التى يقوم بإلقائها فى كل مناسبة وهى مدار حجته وبرهانه فى أحاديثه التى يفيض بهـــا أينما جلس ومع من جلس .

قال أبو الربيع: قعدت أنا وأبو محمد على طريق فمرت بنا امرأة فالتفتت إليها فقال لى : لايجوز قعود على صعدات الطريق إلا لمن أدى حقها . قلت : وما حقها ! قال : قيل لرسول الله ﷺ : وما حقه ؟ قال « إغاثه الملهوف وهداية الأعمى ، وغض الطرف عن الحرمات ، وإماطة الأذى » .

وكان عالماً بالتفسير وبآراء المفسرين قال أبو الربيع: تحدثت مع أبى محمد حتى ذكر أولاده ونظر فى أمرهم ، فهونت عليه وقلت له : إنهم ذكران رجال فلا يهمك أمرهم . فقال : لا تقل هذا القول فإن على الأب أن يعين ولده على إبراره وقد قال بعض المفسرين فى الذين سماهم الله أبراراً إنما سماهم كذلك لأنهم برّوا الآباء وبروا الأبناء فاستحقوا أن يسموا أبراراً . كان خطيباً فصيحاً عارفاً بمواقع الكلام . قام جماعة قطيطيلية يريدون زيارة إخوانهم فتلقاهم أبو محمد قريباً من منزله وقال لهم بعد التحية والترحيب : كان ينبغى أن نتلقاكم فى سوف وإلا ففى واغلانت ولكن الزمن غير مساعد وقال ﷺ :« لاتزال أمتى بخير ما إذا قالت صدقت وإذا حكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت » ، جعل الله مجيئكم مجىء أبى مودود إلى حضرموت . فقام هذا الكلام عندهم أشرف مقام .

ولعل الصورة التى أريد أن أعرضها للقارىء الكريم لا تتم إلا إذا نقلت له ما يلى عن أبى العباس الشماخى :

« ولأبى محمد فى الأدب كلام كثير ، وفى المواعظ والأمثال والتحذير والوصية والأجوبة ، فمن أرادها فعليه بالطبقات وكتاب أبى الربيع وغيرها ولأبى زكرياء مكاتبات بمسائل يطلب جوابها فأجابه فيها وتقدم بعض ذلك ومات عام ثمانية وعشرين وخمسمائه وهو ابن ست وتسعين سنة » . وقد أورد له الدرجينى رسالة قيمة فى ثلاث صفحات تشتمل على حكم قيمة ونصائح غالية ومواعظة حسنة .

obeikandl.com

# أبو عمار عبد الكافى(١)

أبو عمار عبد الكافى بن أبى يعقوب التناوتى نادرة من نوادر الزمان فى الذكاء والفهم والحفظ والرغبة فى العلم نشأ فى وارجلان ودرس على مشائخها فنون علوم الشريعة واللغة حتى أجازوه ، ثم رأى أن يسافر إلى تونس ليزداد علماً فى فروع أخرى من المعرفة ، وكانت تونس فى ذلك الحين قصبة القصاد ومعدن العلم والمعرفة ، ومقر فطاحل العلماء والأعلام ، فاختار أبو عمار من بينهم من أعجبته طريقته فى التدريس وأنس إلى أسلوبه فى التعليم والمعاملة فالتزم مجلسه .

كان أبو عمار من أسرة غنية موسع عليها فى الرزق الحلال فلما أراد السفر إلى تونس اتفق مع أسرته أن يبعثوا إليه ألف دينار كل سنة لمصاريفه وما يحتاج إليه من كتب وأدوات دراسية وإكراميات للمدرسين فكان يأتيه المبلغ كل سنة مع رسالة فيحتفظ بالرسالة فى مكان دون أن يقرأها ويقسم الألف نصفين يسلمه لأساتذته ونصف يحتفظ به لمصاريفه وحاجياته . واستمر على هذه الطريقة حتى بلغ من العلم درجة تؤهله لأن يكون من كبار العلماء فأذن له أساتذته أن يستقل عنهم وأجازوه للفتوى والتدريس . وهنا فكر فى الرجوع إلى وطنه وبدأ يستعد لذلك وتذكر الرسائل المحفوظة فاستخرجها من مكانها مرتبة وبدأ يقرؤها واحدة بعد الأخرى فوجد فى كل واحدة منها أخباراً كانت حرية أن تشغل ذهنه أيام التحصيل والكفاح لو أنه اطلع عليها بل كان فيها ما هو جدير أن يحمله على قطع الدراسة ولكنه تلافى ذلك

---

(١) من أئمة القرن السادس ، ذكره البارونى فى الطبقة الحادية عشرة .

بعدم الاطلاع على الرسائل . وعلم من بعض تلك الرسائل أن والدته قد لحقت بربها وكذلك والده أحدهما بعد الآخر .

وبعد أن صفى أحواله من تونس عاد إلى وارجلان ليؤدى الرسالة المقدسة رسالة كل عالم مؤمن يحرص أن يعمل لله ويجاهد فى سبيله .

قال أبو العباس الدرجينى « ولقد حدثنى بعض الطلبة النفطيين الذين قرأوا بتونس عن بعض أشياخه أنهم قالوا: أدركنا أشياخنا يذكرون طالباً من أهل وارجلان قرأ معهم على شيخهم إذ ذاك ، قالوا وأدركناهم يعجبون من فهمه وحفظه ومواظبته وورعه وسخائه ، وجلالة نفسه ، وسعة خلقه ، قالوا ولم نر مثله من العرب ولا من البربر . قال لى : وكانوا يذكرون لى أنهم اطلعوا على كتاب معه فى علوم مذهبه وكان نظماً فى قصائد . فما هذا الكتاب . فقلت له : هو دعائم ابن النظر كانت منه فى بلادنا من قبل هذا نسخة غير محلولة ، وأما حل ابن وصاف فلم يرد بلادنا حتى ورد به الشيخ أبو موسى عيسى بن زكرياء وأعلمته أن الطالب المذكور هو أبو عمار وأطلعته على كتاب الدعائم ، لما ذكره وسأل عنه ، فلما رآه جعل يتعجب منه ، فنظر منه بعض قصائد العقائد وهى الرائية التى فى الرد على القدرية فقال معرضاً: ماأرى هاهنا إلا موافقة أهل السنة . فقلت له: ماخالف هذا الكتاب فهو خلاف السنة » .

قال أبو العباس الشماخى : « ألف أبو عمار كتابه الموجز فى الرد على كل من خالف الحق فى جزأين ، وشرح كتاب الجهالات فى سفر ، وله كتاب الاستطاعة ، وغيرها ، وأقام بتونس يتعلم الأدب والنحو وغيرها » .

كان أبو عمار من كبار علماء الكلام والمنطق والجدل ولكنه كان

أيضاً من أولئك العلماء الذين يشغلهم علم الباطن عن علوم اللسان ، وكان يعتمد على العمل أكثر مما يعتمد على القول ولا يركن إلى القول إلا عندما يقتضى الموقف تقرير حجة لدحض شبهة ، أو إثبات سنة لمحاربة بدعة ، وكان فى الغالب لا يميل إلى الإسهاب والإكثار من القول وإنما يمتاز برصانة الأسلوب وجزالة المعنى ، والإيجاز فى الحديث .

بعث العلامة أبو عبد الرحمن السكرتى المصبعى بعض أسئلة يطلب عنها الجواب من علماء وارجلان ، فاجتمع المشائخ وناقشوا الأسئلة ثم فوضوا أبا عمار فى الإجابة عنها . وقد حرر أبو عمار الجواب عن الأسئلة ثم عرضه عليهم فوافقوا عليه بالإجماع وأرسلوه إلى عبدالرحمن السكرتى . وقد تضمنت الرسالة عدة أسئلة نضعها بين يدى القارىء فيما يلى :

سؤال ـ ما اليقين والقدر والفرق بينهما ؟

الجواب ـ اليقين صحة الاعتقاد وهو من أفعال القلب ، ومن أفضل أفعال العبادة . قال رسول الله ﷺ :« اعبد الله على الرضا واليقين » ، وإلا ففى الصبر على ما تكره خير كثير . وقال: لو زاد يقيناً لمشى على الهواء والقدر ما قدره الله قبل أن يكون قال عليه السلام فى الإيمان : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره إنه من الله » .

سؤال ـ ما أعلام الساعة ؟

الجواب ـ اثنتان منصوصتان ، واثنتان مستخرجتان من النص وواحدة من الحديث فالمنصوصتان قوله تعالى: ﴿ **حتى اذا فتحت ياجوج وماجوج** ﴾[1] . وقوله فى عيسى عليه السلام : ﴿ **وانه لعلم للساعة** ﴾[2] والمستخرجتان من النص طلوع الشمس من مغربها قال الله تعالى : ﴿ **يوم ياتى بعض آيات ربك** ﴾[3]

(١) الأنبياء : ٩٦ (٢) الزخرف : ٦١
(٣) الأنعام : ١٥٨

والدابة قال الله تعالى: ﴿ واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الارض ﴾[1] والحديث قوله ﷺ: « نار تخرج من عدن تطرد الناس إلى محشرهم ، وحبشى يعلو الكعبة بفاسه يهدمها ، وخسف بجزيرة العرب » .

سؤال ـ هل يقال لله تعالى باللغة البربرية : أَيْرَادُ ؟

جواب ـ ما سمعنا أحداً أجازه إلا أبا سهل ولعل هروبهم من جوازه ، اشتراك اللفظة فى لغة البربر ، فإنهم يسمون الداجن من الطيور والوحش : أَيْرَادَنْ ـ ولمن أخلف : يُرْدِى ـ وهذا على حسب اللغات ، والهروب من المشكل إلى الواضح أولى .

سؤال ـ ما الحكم فيمن قال : إن الله ليس بِيُكْشْ .

جواب ـ إنه إن كان بربرياً أو يعرف لغة البربر فهو كمن قال : إن الله ليس بإله ، ومن قال ذلك فهو شرك .

وقد علق أبو العباس الدرجينى على هذه الأجوبة بما يأتى :

« قلت : وهذه الأجوبة بقدر وسع السائل لا بكنه مقدار المجاوب بل إنه عرض فى تلك السوق ما أشبهها من المتاع ، وادخر الخزّ والديباج لأشكاله اللهم إلا فى جواب السؤال الأخير » .

ولست أدرى ما عسى الدرجينى يقول لو كان هو الذى يجيب عن هذه الأسئلة فإن أبا عمار فيما أرى أجاب بما فيه الكفاية وهو وإن لم يطل فى حديثه عن اليقين والقدر إلا أنه أجاب فأقنع ووافقه على ذلك مشائخ وارجلان ولا شك أن موقف أبى عمار يقتضيه الإيجاز والوضوح فهو لم يكن يلقى درساً

---

(١) النمل : ٨٢

ولم يكن يؤلف فصلا من كتاب وليس هو فى جدال مع القدرية والمرجئة وإنما كان يشرح معنى الكلمتين بإيجاز لسائل راغب فى الاستفادة .

أما إجابته على الأسئلة المتعلقة باللغة البربرية فهى تتعلق بمباحث لغوية . وإذا كانت كلمة ( يكش ) بالبربرية تعنى إله فإن نفيها عن الله تبارك وتعالى باللغة البربرية ممن يعرفها لا شك إشراك بالله لأنها إنكار للألوهية فهى شرك وجحود . أما إذا نطق بها ناطق وهو لا يعرف معناها فحاكى الكفر ليس بكافر والتنزه عن ذلك أولى .

واللغة البربرية كسائر اللغات لها تعابيرها الخاصة بها ولها أساليبها واستعاراتها وكناياتها وأوجه بلاغتها فما أدى المعنى المقصود أداءاً سليماً صحيحاً فذلك حسن وما أوهم أوشكك فذلك ممنوع كما يمنع من العربية أو غيرها من اللغات . والإسلام ـ ولا سيما إبان الفتوح ـ قد دخل إلى كثير من البلاد التى لا يفهم أهلها اللغة العربية ولا يتكلمونها . ولو اشترط الإسلام اللغة العربية على جميع المسلمين لتوقفت الفتوح وتوقف الإسلام فإنه ليس فى إمكان البشر أن يتعلموا اللغة بالسهولة التى يأخذون فيها العقائد وأعمال العبادات ولكن الإسلام ربما جمع الأمم إلى الدخول فى الإسلام . واستعمل العربية حيث أمكن استعمالها واستعمل غيرها حيث لا تؤدى العربية المقصود من الدعوة ، وقد بقيت كثير من الأمم الإسلامية تستعمل لغاتها الأصلية فى كل شىء ماعدا شيئاً واحداً فإنه لا يمكن أن يؤدى إلا كما هو ؛ وهو القرآن الكريم فعلى المسلمين أن يحفظوه بنصه العربى الذى أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ مهما كانت لغات أولئك المسلمين . وإذا لم يفهموا النص العربى فلهم أن يطالبوا بشرح معانيه بلغاتهم . ومعلوم أنه لا يمكن

أن يعتبر الإنسان مسلماً إلا إذا كان محافظاً على الصلاة وأن الصلاة لا تصح إلا بالقرآن فعلى كل مسلم مهما كانت لغته أن يحفظ شيئاً من القرآن بنصه العربى ليصلى به حتى ولو لم يفهم معانى ما يقرأ . وعلى علمائهم أن يشرحوا لهم معانى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بلغاتهم . ونحن إلى اليوم كثيراً ما نلقى دروس الوعظ والإرشاد باللغة البربرية لا سيما فى المواطن التى تحضرها النساء وهن غالباً لا يعرفن اللغة العربية الدارجة . وكثيراً ما توجه إلينا فى المساجد أو المجامع العامة أسئلة باللغة البربرية فنجيب عنها بنفس اللغة إيثاراً لإفهام السائل عما يسأل عنه مقدرين أنه ما اختار استعمال تلك اللغة إلا لأنه أقوى بها على الفهم والاستيعاب .

كان أبو عمار بالإضافة إلى غوصه فى بحار علم الكلام من أكثر الناس حرصاً على العمل ، وبعداً عن المهاترة والشغب ، وهروباً من المراء والجدال واشتغالا بالاهتداء والاقتداء واتباع السلف . وقد اهتم بتاريخ العلم والعلماء فألف فيه كتاباً قيماً اعتمد عليه الدرجينى فى طبقاته فيما بعد ، قال أبو العباس الدرجينى فى مقدمة كتاب الطبقات ما يلى :

« هذا الترتيب الذى رتب أبو عمار حسن فى معناه إلا أنه لم يذكر من الطبقة التى هو فيها شيوخه ومعاصريه إلا بعضاً من كل ، واستغنى فيها عن كثير من العدد ، وفيمن سمى كفاية . » وبعد أسطر يقول : « وها هنا وجب أن نذكر جماعة من الأشياخ الذين أخذوا عن الجماعة التى انتهى إليها ترتيب الشيخ أبى عمار » .

كان الدرجينى حين ألف كتابه الطبقات حسبه تتمة لعمل أبى زكرياء يحيى بن أبى بكر ثم لعمل أبى عمار وجاء من بعدهم أبو القاسم البرادى فرأى أن الدرجينى لم يتناول القرن الأول بالإسهاب والتفصيل اللازمين فتناوله

هو وحسب كتابه ( الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات ) كأنه مقدمة لكتاب الدرجيني أو فصول منه ، وجاء من بعدهم العلامة أبو العباس الشماخي فألف موسوعة تاريخية لعلماء المذهب وترجم لجميع من ذكره السابقون ولكثير ممن أغفلوه عمداً أو سهواً فجاء الشيخ سعيد القعاريتي وانتقد الشماخي في ذلك السهو ثم ترجم لعدد جم لمن غفل عنه الشماخي من معاصريه ومن جاء بعدهم حتى جاء شيخنا أبو القيظان إبراهيم رحمه الله فأتم عمل الشماخي منذ ذلك العصر إلى اليوم وقد ترجم فيه لجميع علماء الإباضية من المغرب الإسلامي مدة خمسة قرون وزيادة فجزاه الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء .

بعد أبو عمار في عصره من أعلام الأدب والتاريخ والسيرة زيادة عن علوم الشريعة بجميع فروعها ، وكان يضطلع بالتدريس والفتوى والحكم بين الناس وهو في جميع أطواره مؤمن حريص على إيمانه محافظ على دينه ذكي يفهم أسرار الشريعة ويفرق بين الأحوال فيها ، وعندما تعرض عليه مشاكل الناس يسبر أغوار نفوسهم أولا فيساعده ذلك على حل المشاكل بعدل وحق ولعل الصورة التي نريد أن نضعها له لا تتم إلا بما يأتي : كان أبو عمار يقول : « إذا وقعت فتنة بين فئتين من المؤمنين ، فالأحب إليّ أن يصطلحوا فإن لم يفعلوا فالأحب إليّ أن لا تغلب فئة فئة ، فإن من أحب أن تغلب إحداها الأخرى ، فقد دخل في الفتنة ، ولزمه ما لزم أهل تلك الفتنة وكأن سيفه يقطر دماً . » وروى عنه عيسى بن أحمد أنه قال : « السلامة عندي أن يكونوا من البراءة سواء لا يرجح قلبي إلى إحدى الطائفتين ، فإنه متى رجح أثم » فرحم الله تلك النفوس المؤمنة التي ليس لها ميزان غير ما يرضي الله تبارك وتعالى .

# أبو يعقوب بن خلفون[1]

كان أبو يعقوب يوسف بن خلفون المزاتى من الذكاء والعبقرية وسعة الاطلاع فى مرتبة قصر عنها جمع من نظرائه ومنافسيه ، وقد أوتى مع سعة الاطلاع حسن التصرف فى المعرفة ، وفضل البيان فى التعبير . فكان حين يتحدث فصيح العبارة ، سهل الأسلوب ، بين المقاصد ، سليم اللغة ، وكان حاضر البديهة قوى العارضة ، ساطع الحجة لا يطاق فى النقاش ، ولا يوقف له فى المناظرة .

وكان بارعاً فى الشرح والإيضاح عند التدريس عذب الحديث فكان طلاب العلم يتزاحمون على مجلسه ، ويتدافعون على الاقتراب منه ، والاغتراف من نبعه الفياض الذى لا ينضب .

قال عنه أبو العباس الدرجينى : « المتحقق الوصول إلى الغاية فى علمى الفروع والأصول ، إن درّس فملقن يحسن التلقين ، وإن أفتى فمغترف من عذب معين ، لا يخشى منه تعسف ، ولا يدرك ألفاظه تكلف ، كثير الاطلاع على مسائل الاتفاق والاختلاف ، كثير الدفاع عما قيده فقهاء الأسلاف ، وله تعليقات عجيبة وأجوبة مقنعة مصيبة ، إلا أنه كان مع محافظته وكثرة حفظه ، يعجب من ضعف بخته مع الإخوان وقلة حظه ، فإنهم لم ينيلوه فى العشرة إنصافاً ، ولم يهبوه من أنفسهم إسعافاً ، بل لقد أذاقوه العقوق أصنافاً » .

كان أبو يعقوب لغزارة علمه ، وسعة أفقه ، لا يتطامن لمنافسيه ، ولا

---

(١) من علماء القرن السادس ، ذكره البارونى فى الطبقة الحادية عشرة .

يتصاغر لهم ، وإنما كان يدل بما عنده ، من علم ، ويتحدى من يتعرض له فى النقاش وكان إلى جانب ذلك لا يضفى على كتب السابقين ثوب القداسة ، ولا يرفعها إلى مكان العصمة من الخطأ ، وإنما كان ينتقدها نقد الخبير ، فيطرى ما استجاد منها وينتقد مالم يحز رضاه ، شارحاً لمآخذه أحياناً ، مجملا لها أحياناً أخرى وكان مع هذه الحرية فى الرأى كثير المطالعة لا يكاد يفلت منه كتاب من الكتب الموجودة فى عصره مما ألفه علماء الإسلام من مختلف المذاهب ، وكان يعنى بمسائل الخلاف بين المذاهب عناية خاصة ، ويراجعها فى مصادرها عند كل مذهب . فكان الزائر عندما يزوره يجد عنده مجموعات من مختلف الكتب لمختلف المذاهب . وهذا التحرر فى المنهج الدراسى والاعتداد بالنفس وعدم التطامن للأقران هو الذى أثار عليه بعض منافسيه . كما أثار بعض الفقهاء المتشددين من عصره الذين لا يرتفعون إلى أفقه ولا يحلقون فى جوه وإن كانوا يتمتعون بمركز علمى ممتاز وسمعة شهيرة ذائعة فحاربه الطرفان بغير سلاح العلم وحكموا عليه بالخطة والهجران . ولكن الرجل القوى استمسك بموقفه فلم يتنازل لهم وقرر أن لا يرجع عما يراه من الصواب إلى استرضاء الجامدين والتنازل للمنافسين وإنما استمر يعمل على أفقه الفسيح ، ويسبح فى جوه الواسع .

وسمع الإباضية من مختلف بلادهم بإصدار حكم الخطة على أبى يعقوب وكان يصل إليهم هذا الخبر عن ناس موثوق فى دينهم وأمانتهم . والبعداء الذين تصلهم الأخبار من جانب واحد لا يعرفون حقيقة الوضع فيلتزمون بما وصل إليهم فكانوا هم أيضاً يعتبرون ذلك العالم الفاضل فى حكم الهجران فيتقطعون عنه الصلة ويحولون دونه ودون اللقاء . وكأن بعضهم يتساءل عن سبب هذا الحكم على عالم واسع الاطلاع فيأتيه الجواب بأن الرجل يطعن فى كتب

السلف ولا يهتم بما كتبه علماؤنا الأجلاء ويحتقر كتبهم ولاشك أنه خارج عن مذهب أهل الحق والاستقامة إلى مذاهب أخرى ويضيف نقلة الأخبار إلى هذا ما يناسبها من التهم التى يلفقها المنافسون ويقبلها الجامدون .

بقى أبو يعقوب زمناً غير تصير تحت ضغط هذا الحكم القاسى فلا العلماء المستنيرون كسروا الهجران وحاولوا أن يتصلوا به ليناقشوه ويفهموا منه وجهة نظره ولا هو حاول أن يسترضى أولئك الذين حكموا عليه ، أو يتصل بغيرهم من فطاحل العلم فيشرح لهم موقفه ويبين لهم مقصده وإن كان نظام تطبيق الخطة يقتضى أن لا يحاول المحكوم عليه أن يعتذر أو يتخلص إلا بعد إعلانه التوبة مما نسب إليه وهذا هو الموقف الذى لم يرد أن يتخذه أبو يعقوب . إلى أن أتيح له أن يحج إلى بيت الله الحرام .

ويقص علينا العلامة أبو عبد الله بن سعيد وهو حينئذ من تلاميذ العلامة يخلف بن يخلف فيقول : « خرجنا حجاجاً مع شيخنا يخلف بن يخلف حتى إذا كنا ( بعقاب ) قدم علينا فى وقت المساء رجل لانعرفه فرأيناه يسأل عنا، فقال له يخلف : من هذا السائل وممن ؟ قال أنا صباح المزاتى . فاستحال[1] ذلك شيخنا فبادره بأن قال : كذبت ... قال أبو عبد الله وما رأيته قط عمل بسوء معاملة قاصداً إلا تلك الليلة ، ثم تدارك فسأله : ما شأنك ؟ وما وراءك ؟ قال : قدمت مع عمى يوسف بن خلفون وأعلمه بأمور دلت على صدقه ، فجعل يستغفر الله ويتوب إليه مما فرط منه. قال له : وابن عمك يوسف؟ قال : يبيت عندكم فى الليلة المقبلة ، قال أبو عبد الله : فلما كانت الليلة المقبلة لحق بنا هو ومن معه . فلما حل بنا أبو يعقوب . لم يمكنا إقبال عليه ،

---

(١) استحال الشيء : عده محالا لا يمكن أن يقع .

لأنا قد خرجنا من بلادنا ، والعلم عندنا أنه فى الهجران ، ولا علم عندنا بتوبته ولا غيرها ، فجهدنا أن نتأسى بشيخنا يخلف ، فما تقدم فيه تقدمنا . قال: فلما ترائى الشيخان وضع شيخنا يخلف يده فى يد أبى يعقوب وتنحيا جانباً غير بعيد ، فجعل يثرب عليه ويعدد ما نسبوه إليه بتثريب لم نفهم منه إلا ماعاينا الشيخ كلما ذكر الشيخ خطيئة خط بإصبعه فى الأرض خطاً ، فكلما عدد عليه شيئاً ذكر وجهه وسببه واعتذر واستغفر ، حتى أتى عليها جميعاً ، وظهرت براءته ، وكان الشيخ يخلف يقول فى تثريبه: يا ابن خلفون كيت وكيت ثم يخط ... ثم يقول يا ابن خلفون كيت وكيت وأطال العتاب وأبو يعقوب مطرق إلا أنه مهما عد عليه شيئاً ذكر وجهه وسببه ، حتى توجه عند الشيخ عذره .

فسمعنا شيخنا يقول : الحمد الله رب العالمين ، وقاما معاً فاعتنقا ، وقمنا نحن أيضاً فسلمنا على الفقيه أبى يعقوب وتأنسنا به ، وسرنا إلى بلد الله الحرام ، فأدركنا هنالك ركب إخواننا أهل عمان ومعهم فقيههم الذى حج بهم يسمى ناجية بن ناجية .

قال أبو عبد الله : « فحججنا حجة لم يحجها مغربى قبلنا ولا بعدنا » .

صبر أبو يعقوب كما رأيت لحكم البراءة الذى أصدره عليه الفقهاء والجامدون من أهل بلده ثم أبلغوه إلى إخوانهم فى كل مكان فحكموا به عليه ، ولم يسارع إلى إعلان التوبة بين يدى أولئك الفقهاء لأن التوبة تعنى الرجوع عن حقه إلى باطلهم والتنصل من أرائه العلمية المجردة ، التى قصروا عن فهمها . ولم يتح له أن يتصل بغيرهم ممن هم أوسع أفقاً وأسلم إدراكاً وأصح فهماً . فلما أتيح له أن يحج وسمع بعزم العلامة يخلف بن يخلف على الحج فرح بذلك وبعث إليه ابن عمه يخبره أنه سيرافقهم ، وهو يعلم أنه فى نظر

يخلف ـ فى الهجران ويعلم كذلك أن يخلف من أشد الناس تمسكا بالبراءة ممن يستحقها وأحرصهم على أن يسير الجميع سيرة يرضى عنها الدين والخلق والعلم ، ويعلم كذلك أن يخلف قد أُوتى من العلم ما يفرق به بين الحق والباطل والصواب والخطأ ومن الدين ما يجابه به أى فرد أو هيئة مستمسكا بالحق لا يفرط فيه .

ولما وصل أبو يعقوب حار الناس فى موقفهم منه . أيقفون منه موقفهم مع مجرم مذنب يعتبرونه عاصياً فيقاطعونه ولا يسلمون عليه ، أم أنهم يكسرون حكم الهجران ، فيهدمون قاعدة هامة من القواعد الخاصة بالمذهب والتى كانت سبباً فى حفظ المجتمع الإباضى من الانحراف ثم إنهم سوف يحكم عليهم هم أنفسهم بالهجران ويخرجون إلى الخطة واتفقوا أخيراً أن يقتدوا بشيخهم يخلف وفى اقتدائهم به عذر لهم عند أبى يعقوب وعند خصومه . وما اقترب منهم حتى قام إليه الشيخ يخلف قبل أن يكسر الهجران ودون أن يسلم عليه هو أو غيره وتنحى به جانباً ثم وقف معه موقف القاضى الحازم مع المتهم يسوق إليه التهم الموجهة إليه ممن حكموا عليه بالبراءة ويطلب منه الدفاع عن نفسه وكان كلما ذكر تهمة خط خطاً واستمع إلى الرد فإذا اقتنع به وجه التهمة التالية وخط خطاً وهكذا[1] .

يا ابن خلفون قيل إنك تهون فى تآليف أسلافك .

يا ابن خلفون إنك تشتغل بمطالعة كتب أهل الخلاف .

يا ابن خلفون إنك تعظم علماء أهل الخلاف وتحتقر علماء مذهبك .

---

(١) الأسئلة الآتية أمثلة لما نظنه جرى فيه النقاش ولم نعثر فى المصادر التى بين أيدينا على نصوص النقاش الذى جرى بين العالمين الكبيرين .

يا ابن خلفون إنك تتكبر على العزابة ولا تخضع لأحكامهم .

يا ابن خلفون إنك تصر على خطئك ولا تراجع التوبة .

يا ابن خلفون قيل إنك تريد أن تخرج عن مذهبك وتنتحل غيره .

يا ابن خلفون قيل وقيل إلى آخر ما وجه إليه من تهم ونسب إليه من أقوال وأفعال تبعد عن منهج الاستقامة . وكان أبو يعقوب يستمع إلى العالم العظيم فى احترام وتقدير وكلما وجه إليه تهمة ذكر وجهة نظره والأسباب التى دعته إلى عملها أو القول بها أو أنكر أن تكون منه إن كانت التهمة كاذبة ثم يعتذر ويستغفر الله حتى اقتنع الشيخ يخلف بسلامة موقف الشيخ أبى يعقوب فحمد الله على ذلك وقام فاعتنقه وحطم ذلك السور الذى ضرب على ابن خلفون ما يزيد على اثنتى عشرة سنة كما يذكر بعض المؤرخين .

وقد تناول أبو العباس الدرجينى هذه القضية بالمناقشة ووقف فى جانب أبى يعقوب موقف المحامى اللبق والمدرس الخبير . وقد حاول أبو العباس فى مناقشته لهذا الموقف بين العزابة وأبى يعقوب أن يبرر موقف كل منهما وأن ينظر إلى مسلكه من زاوية معينة . فعذر العزابة فى موقفهم وعذر أبا يعقوب فى سلوكه .

وأحسب أن أبا العباس وفق كل التوفيق فى مناقشته تلك .

كان كبار العلماء أشد استمساكاً بتطبيق أحكام البراءة على من يستحقها ، ويندر أن تقع حالة مشابهة لحالة أبى يعقوب فيحكم بالهجران بأسباب غير وجيهة . وعندما يقع مثل هذا الخطأ فإن أهل العلم والدين

يؤيدون حكم العزابة حتى يتبين لهم الخطأ فى حكمهم ويتأكد ذلك لديهم ، وأن المحكوم عليه لا يستحق ذلك الحكم ، وهم بطبيعة الحال معذورون فى هذا الموقف ، وقد يتشددون أكثر إذا كان المحكوم عليه من رجال العلم ، لأن رجال العلم المفروض فيهم أن يكونوا قدوة وأن يكونوا أبعد الناس عما يغضب عليهم جماعة المسلمين .

وعندما أعلن حكم البراءة على أبى يعقوب كان من أشد الناس عليه العلامة أبو رحمة حنين اليشكنى ذلك أن العلامة أبا رحمة كان مرجعاً فى وارجلان وكان لا يتساهل أبداً فى أى انحراف مهما كان بسيطاً . ولما أعلن عزابة ( تين باماطوس ) حكمهم على أبى يعقوب انتظر منه أبو رحمة موقفاً غير موقفه فهو إما أن يسارع إلى التسوية والتنصل مما نسب إليه وهذه هى الطريق التى سلكها أغلب علماء الإباضية الذين لحقهم حكم الهجران ، وإما أن يتصل بالعزابة خارج بلده ، ويبرر لهم موقفه ويقنعهم أنه ليس على خطأ وقد لا ينجح فى هذا أبداً فلما لم يفعل شيئاً من ذلك حسب أبو رحمة منه ذلك تعنتاً وغروراً وارتفاعاً على العزابة فاشتد عليه واشتد فى محاسبة من يتصل به .

كان طلبة العلم الذين يدرسون فى مدارس مختلفة عندما ينتهون من دراساتهم يعودون إلى أعلام العلماء من المذهب فيعرضون عليهم ما أخذوه من مختلف المدارس ليصححوا لهم ما أخذوه ويجيزوهم فيعترفون بعلمهم ويعرف به الناس من ورائهم . وهم حين يعرضون عليهم ما تعلموه قد ينصحونهم بوجوب الاستمرار فى الدراسة مع تعاطى التدريس ، وقد يجيزون لهم التدريس والفتوى مطلقاً وكان أبو رحمة اليشكنى هو المرجع

فى ذلك العصر كله فكان الطلاب يدرسون فى مختلف المدارس والبلاد ثم يرتحلون إلى وارجلان ليعرضوا عليه ما درسوه .

قال بعض الطلبة : « قدمت من جهة طرابلس بعد قراءتى بهـــا على الشيخين أبى عبد الله وأبى عمران موسى النفوسيين مسائل فى المذهب فقصدت جهة وارجلان لألقى الشيخ أبى رحمة اليشكنى فأعرض عليه ما أخذت قال فاجتزت على تين باماطوس وبها الفقيه أبو يعقوب ثم جئت إلى أبى رحمة ( بايقران ) فلما رآنى قال لى : على طريق تين باماطوس كان طريقك ؟ . فقلت نعم . قال : هل سلمت على فلان . قلت لا . قال لو سلمت عليه لم أسلم عليك » . هكذا كان أبو رحمة يتشدد فى تطبيق الحكم والحرص على تنفيذه والمحافظة عليه وقد بقى حكم الهجران مصلتاً فى قوة وعنف على أبى يعقوب إلى أن التقى بالعلامة يخلف فى طريق الحج فأعلن هذا العالم العظيم رفع البراءة عن ذلك العالم العظيم حين اقتنع بسلامة موقفه وصحة عقيدته وبراءته من بعض ما نسب إليه .

ورغم هذا الموقف الصارم من عزابة ( تين باماطوس) ضد أبى يعقوب واتهامهم له بأنه يريد أن يخرج عن المذهب وأنه يفضل كتب المذاهب الأخرى وأنه كان يطعن على أسلافه رغم هذه التهم كلها فإن أبا يعقوب قد برهن عملياً على أن أولئك الناس لا يعرفون عن حقيقة دراساته ومواقفه فى الاحتجاج للمذهب على غيره شيئاً وقد ذكر أبو العباس أنه مما قيد من تعليقات أبى يعقوب يوسف بن خلفون أجوبته عن المسائل التى سأله عنها سائل فكتب بها إليه ويبين ما فى جميعها من أقوال العلماء .

فوجه ما ذهب إليه أصحابنا واستدل على صحته بأدلة قاطعة ورسالته إلى أهل جبل نفوسة مشتملة على فقه ووعظ .

وقد اطلعت على رسائله تلك وهى نموذج رائع من التحقيق العلمى ومناقشة مشاكله على ضوء آراء علماء الأمة لا علماء المذهب فقط مع الاعتماد أساساً على السنة النبوية المطهرة وآراء الصحابة رضوان الله عليهم وقد علمت أن الأخ الدكتور عمرو النامى سدد الله خطاه قد حقق تلك الرسائل وهو بصدد نشرها[1] فى رسالة المسجد ( لدار الدعوة ) أما رسالته إلى أهل الجبل فلم أطلع عليها ولابد أن تكون للعالم العظيم أعمال أخرى غير هذه إما أنها ضاعت أو لم يتيسر لى الاطلاع عليها .

(١) قد نشرت تلك الرسائل بتحقيق الدكتور النامى وأحسب أنها نفدت .

# أبو عمرو السوفى(١)

هو أبو عمر عثمان بن خليفة السوفى المارغنى قال عنه أبو العباس الشماخى :

« كان إماماً فى العلوم لا سيما علم الكلام » .

أخذ أبو عمرو العلم عن العلامة الكبير أبى العباس أحمد بن محمد بن بكر. وقد أخذ عنه مع العلم حبه للعمل .

فكان أبو عمرو من أولئك العلماء الذين يكافحون بكل ما أوتوه من قوة فى سبيل الله كان لا ينفك عن محاربة الجهل والبدعة والانحراف ، حيناً بالموعظة الحسنة ، وحيناً بالنقد اللاذع والتوبيخ الصارم ، والوعظ الزاجر وكان لا ينفك يدعو إلى الاستمساك بدين الله مبيناً للناس ما كان عليه رسول الله ﷺ ، وما كان عليه أصحابه رضوان الله عليهم وكيف كانت سيرة خيار المسلمين .

ولقد كان بلده (سوف) بالنسبة للإباضية خير مكان لمن يقوم بالدعوة لأنه جاء متوسطاً بين الأماكن العامرة بهم كأنه نقطة ارتكاز ، فيرتحل منه الداعية مغرباً فيزور بلاد أريغ ووارجلان وبادية بنى مصعب وجبال أوراس وما ولاها . يحلق عليه الطلبة ويجتمع به المشائخ ويستمع إليه العوام ويساعد على حل ما يجده من المشاكل ويعود إلى مركزه فيستقر قليلا ثم يتجه مشرقاً فيزور بلاد الجريد : نفطة وتوزر ودرجين والحامة وجربة

---

(١) من علماء القرن السادس، ذكره البارونى فى الطبقة الحادية عشرة .

وجبال دمر حتى يبلغ جبال نفوسة وما ولاها ثم يعود وتعددت رحلات أبي عمرو حتى ضاقت منها صدور المتعصبين من بعض المذاهب فكادوا له .

وهذا هو أبو العباس الدرجيني يعرض علينا بأسلوبه الرائع تلك الحادثة المؤسفة قال :

« إن الحامة لم تزل في إدبار من عهد أبي القاسم وأبي خزر رحمهما الله، وما طرأ على كل واحد منهما وعلى من بعدهما حتى إذا كان في زمن الشيخ عثمان السوفي فورد الحامة وليس فيها من أهل المذهب إلا أطلال بالية ، ومساجد عامرة كالخالية . وكان أبو عمرو عابر سبيل فأراد أن يذاكر هنالك بما يثبتهم في الدين ويمسكهم بعقائدهم على يقين ، وكان المخالفون من أهل الموضع قد سكنت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بانقراض مذهبنا في بلدهم ، وضعف من بقي من أهله ، فلما سمعوا بقدوم أبي عمرو ، وبما شرع فيه ، عضّوا عليه الأنامل من الغيظ ، واجتمعوا فيما بينهم وأرادوا ما يفضحون به أبا عمرو إذا هم ناظروه ، فتشاوروا في ذلك ، فجعل كل واحد منهم يدلي برأي فقال قريعهم :

اعلموا أن الرجل عالم ، ذو قدرة على المناظرة ، ولا طاقة لكم به إن حاولتم أخذه في الطريق المهيع ، لكن إن سلكتم معه بنيات الطرق وجادلتموه بالباطل، ومقّتموه في أنظار العوام وتظلمتم فإنكم تظفرون به. قالوا: وكيف يمكن الظفر به من طريق الباطل ؟ قال : يسأله أحدكم : هل يجوز في مذهبكم تزويج نسائنا ؟ فإنه حينئذ يقول الحق ويجيب بأن يستعظم هذا ويقول :

يا سبحان الله قد جاز عندنا تزويج اليهوديات والنصرانيات فكيف بنسائكم . فإذا قال هذا ألزمناه الذنب بأن نقول له : نراك أنزلتنا منزلة

اليهود والنصارى فنكابره ونفحمه وإن هو أجاب بنعم فقط استأنفنا سؤالا آخر .

فلما كان الغد أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، وأحضروه هو وتلامذته فسأله سائلهم بما أعدّ من مسألة النكاح فأجاب بما كان خصمه ينتظره منه فلما قال ذلك قال مِدره القوم: إن هذا أنزلكم منزلة اليهود والنصارى .

فقاموا عليه قيام رجل واحد شتما وصفعاً وضرباً وطرداً حتى نفوهم من البلد وأكرهوا من بقي من أهل المذهب على الرجوع إلى مذهبهم وعمدوا إلى المسجد الكبير من مساجد الإباضية فغسلوه بمياه كثيرة حتى جرت أنهاراً وسارت في الطرقات وخرجت من البلد هامية .

يعتقدون أن ذلك تطهير للمسجد والبلد » !! .

هذه حادثة من الحوادث الكثيرة التي كانت تقع بسبب الجمود والجهل والتعصب المذهبي والتي يتسبب فيها غالباً ويقودها رجال قاصرون ينتسبون إلى العلم ، ولكنهم يحاولون أن يسيطروا على أذهان العامة بالادعاء والدجل، فإذا حل بين ظهرانيهم من يتحلى بالعلم الصحيح والخلق السليم والدين القويم خافوا أن يفتضح قصورهم وتقصيرهم ، ويتضح للناس جهلهم وفشلهم فيلجأون إلى المكائد يدبرونها ضد أهل العلم والخلق والدين مهما كانت نتائج تلك المكائد ولو سببت في فتن بين الناس تنتهك فيها الحرم وتراق الدماء ،وتضيع الأموال بغير حق .

كان أبو عمرو منذ كان طالباً جم النشاط كثير الحركة ذا حيوية متدفقة .

فلما أراد أن يسافر من وارجلان إلى وادى سوف وقد أصبح ذا منزلة علمية مرموقة شيعه الشيخان أيوب بن اسماعيل ، وموسى بن على ، وكان الشيخان يريدان منه أن يتجمل بشىء من الوقار تقتضيه منزلته العلمية فقال له أيوب : يا عثمان الوطوطة والعلم لا يجتمعان ، وقال له موسى : الحجر المتقلب لا يثبت عليه بنيان . قال أبو عمرو : فرأيت ما أشارا به هو الصواب .

قال أبو العباس الشماخى : « وله من التآليف كتاب السؤالات وهو تأليف مفيد أظهر فيه منزلة من العلم وله غيره من التآليف وله مناظرات مع المخالفين » .

ولقد اطلعت على نسخة من هذا الكتاب القيم . تخرج على يديه عدد من الأعلام منهم ميمون التنكنيصى الورغمى وهو أحد العلماء الثقاة الذين جازت عليهم نسبة الدين وكان حلقة فى السلسلة التى ربطت العصور المتأخرة بخير القرون .

# أبو سهل بن إبراهيم[1]

هذه الترجمة منقولة حرفياً من كتيب صغير لشيخ الصحافة الجزائرية شيخنا أبي اليقظان إبراهيم رحمه الله. اسمه « تراجم الأئمة » قال : هو الشيخ أبو سهل يحيى بن إبراهيم بن سليمان بن إبراهيم بن ويجمان رحمه الله ، العالم الشهير ذو الكرامات العديدة . والآثار القيمة ، والتآليف الكثيرة ، والأجوبة المفيدة بالعربية والبربرية .

وذكر لي العلامة الشيخ إبراهيم بن أبي بكر أن له تأليفاً رائقاً عند القطب الشيخ طفيش رحمه الله .

ومسجده في البلد داخل داره في شارع البستان . وقبره خارج البلد وهو كالربوة لم يندرس ، ومن جهة رأسه محراب كبير ويزار كل عام على الهيئة التي قدمنا .

وأما أبوه إبراهيم وجده سليمان وجد أبيه إبراهيم وجدهم الأعلى ويجمان فكلهم فضلاء معدودون في جملة المشائخ العظام .

وأما ابنه داوود بن سهل فهو شيخ عالم عامل شديد في الأمر والنهي شديد الشكيمة على العصاة والمجرمين .

ومن تلامذة أبي سهل الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني مؤلف كتاب « الطبقات » طبقات المشائخ كتب له أبوه قصيدة من عيون شعر

---

(١) أبو سهل يحيى بن إبراهيم، ذكره القطب في الطبقة الثانية عشرة .

أهل الحق والاستقامة يحرضه فيها على تحصيل العلم والمواظبة حين كان يتعلم على الشيخ أبي سهل بوارحلان وتعتبر بحق أنها فريدة فى بابها ومطلعها :

مضت سنة واستقبلت بعدها أخرى ... فيا ليت شعرى ما يجيء به البشرى
أبالعلم فزتم أم إلى اللهو ملتم ... ونحن نعد العام والفصل والشهرا
ألا إنها تحصى عليك لياليا ... فما الترك والإهمال للحرّ بالأحرى
فحاسب أبا العباس نفسك جاهداً ... وناقش ولا تنسى الصغيرة والكبرى

إلى أن قال :

وشيخك والحفاظ حاذر عقوقهم ... ووقّرْهُمُ كُلاًّ وكن بهمُ برا
وعاشرهمُ فى الله أحسن عشرة ... وكن لهم ، لا تعصى سراً ولا جهرا

إلى أن قال :

فَمَا عُذْرُ مَنْ أُسْتَاذُهُ نَذْرُ عَصْرِه ... أبو سهل الحبرَ الذى قد علا فخرا
سلالته أشياخ كرام وسادة ... فأكرم به فرعاً وأكرم بهم بحرا
حوى العلم والدين القويم وراثة ... وأصبح فى ذا العصر أطيبهم ذكرا
ففيه التناهى فى العلوم فحسبه ... فكل فقيه ماهر فطن نذرا
به (وَرْقَلَى) تزهو كمالا وبهجة ... به أشرقت نوراً به اتسمت نورا

إلخ ، وذكر القطب فى رسالة وادى ميزاب رقم ١٨١ ما نصه :

«من أهل الخمسين الثانية من أهل المائة السادسة : أبو سهل يحيى بن إبراهيم الورقلى » . . انتهى

# أبو يعقوب الوارجلانى[1]

أخذت ترجمة هـذا الإمام من رسـالة شيخنا أبى اليقظان رحمه الله « تراجم الأئمة » مع قليل من التصرف وكثير من الاختصار .

هو الإمام أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السوراتى الوارجلانى رحمه الله وهو من رجال القرن السادس الهجرى توفى سنة ٥٧٠ هـ .

ولد فى بلدة وارجلان عام ٥٠٠ هـ وبعد أن أخذ فى تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن العزيز وتفقه فى الدين على منهاج الإباضية الوهبية وأخذ مبادىء علوم الدين من عقـائد وفقه عن مشائخه فى وارجلان ، ارتحل إلى الأندلس وسكن قرطبة وهو شاب أعواماً عديدة لاستكمال علومه فى فنون اللسان والتفسير والحديث والتنجيم ونبغ فى جميع ذلك نبوغاً منقطع النظـير كما ستعرفه قريباً إن شاء الله وقد ترجم له عدد من مؤرخى السلف والخلف منهم أبو العباس الدرجينى ، وأبو العباس الشماخى ونور الدين السالمى وعبد الرحمن الجيلالى وأبو إسحق طفيش ، وتحدث عنه أيضاً المؤرخ التونسى الكبير الشيخ حسن حسنى عبد الوهاب .

وقد نقلها شيخنا أبو اليقظان كلها فى رسالة ولكنى رأيت أن أقتصر على واحدة منها هى ما نقله عن الشيخ الجليل عبد الرحمن الجيلالى قال :

هو العلامة المتبحر أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلانى ولد بمدينة وارجلان — ورقلة — بالجنوب الجزائرى سنة ٥٥٠ هـ — ١١٦٠ م وأخذ

---

(١) من أئمة القرن السادس ، ذكره البارونى فى الطبقة الحادية عشرة .

العلم ببلده ثم ارتحل منها إلى الأندلس طالباً الاستزادة فدخل قرطبة حاضرة العلم يومئذ فكان هناك بين المثقفين مثالا للنبوغ النادر والأدب الجم والاطلاع الواسع والعلم الغزير ، حتى كان الأندلسيون مع حداثة سنه يشبهونه بالجاحظ ، ثم عاد إلى وطنه ، وجدد منه الرحلة إلى المشرق فدخل عواصمه العلمية اللامعة وتضلع فيها بجميع ما كان متعارفاً مشهوراً فى وقته من العلوم الإسلامية معقولها ومنقولها ، وأكثر من الرحلة فى سبيل العلم فتوغل فى أواسط أفريقيا حتى بلغ إلى قريب من خط الاستواء قبلما تبجح الأوروبيون باكتشافه بقرون .

ذكر ذلك بنفسه فى كتابه الجليل الجامع « الدليل والبرهان لأهل العقول » وهو أحد كتبه الممتعة طبع بمصر سنة ١٣٠٦ هـ ـ ١٨٨٨ م .

ولما عاد من رحلته لازم داره بوارقلة منكباً على الدرس والتأليف مكرساً حياته لخدمة العلم ونشر الثقافة الإسلامية . فلم يخرج من داره مدة سبعة أعوام ولم يكن يرى فيها ـ كما قال الشماخى ـ إلا ناسخاً أو للأقلام بارياً ، أو للدراسة فاعلا ، أو للحبر طابخاً ، أو للدواوين مقابلا ، أو للكتب مسفراً .

وللشيخ من التآليف : تفسير القرآن يقع فى سبعين جزءاً وصف البرادى جزءاً منه فقال :

« رأيت منه فى بلاد أريغ سفراً كبيراً . لم أر ولا رأيت قط سفراً أضخم منه ولا أكبر منه حزرت أنه يجاوز سبعمائة ورقة أو أكثر أو أقل فيه تفسير فاتحة الكتاب والبقرة وآل عمران . وحزرت أنه فسر القرآن كله فى ثمانية أسفار مثله . فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر فى لغة

أو إعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو في جميع العلوم منه » .

يقال إنه يوجد من هذا التفسير جزء واحد بإحدى خزائن ألمانيا . وله كتاب العدل والإنصاف فى أصول الفقه يقع فى ثلاثة أجزاء .

والقصيدة الحجازية نظم فيها رحلته العلمية إلى تلك الديار تقع فى ٣٦٠ بيتاً جمع فيها كثيراً من فنون العلم ـ وكتاب مرج البحرين فى الفلسفة ترجم إلى أكثر لغات أوروبا نظراً لأهميته .

واشتهر له فى خدمة كتب الحديث « ترتيب سند الربيع بن حبيب » . وما رأيت له من كتبه المطبوعة سوى « الدليل والبرهان » . جمع فيه من الفنون ـ الحكمة والفلسفة والإلاهيات وعلم الكلام والمنطق والهندسة ومناقشة المذاهب والتفسير .. إلخ فهو أشبه بصورة مصغرة لدائرة معارف إسلامية ، وتوفى رحمه الله بمسقط رأسه وارجلان سنة ٥٧٠ هـ ، قال شيخنا أبو اليقظان حفظه الله : وما بقى فى حفظى عنه ، ما قصه علىّ عنه ـ وأنا فى تونس فى غضون سنة ١٩١٤ م ـ أستاذنا حسن حسنى عبد الوهاب أستاذنا فى التاريخ بالمدرسة الخلدونية أنه قال :

إن أبا يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلانى يعتبر عند علماء أوروبا أكبر عالم رياضى فى شمال أفريقيا ثم قال: إن له كتاباً كبيراً فى التاريخ يسمى فتوح المغرب رأيت نسخة منه فى تركة المستشرق الكبير الفرنسى مسيو ( مونتينسكيو ) ولولا قلة النقود عندى لاقتنيته فى جملة ما اقتنيت مما خلف مثل رسالة ابن الصغير المالكى فى أئمة بنى رستم قال :

ويوجد ذلك الكتاب ـ فتوح المغرب ـ الآن فى بعض خزائن ألمانيا ، وقد بحث عنه شبابنا فيها فلم يحصل على أى نتيجة إيجابية ، وما تزال الجهود فى البحث عنه متواصلة .

أخذ العلم فى وارجلان عن عدد من كبار العلماء أمثال أبى عمار عبد الكافى وأبى زكرياء يحيى بن زكرياء وأبى سليمان أيوب بن إسماعيل وقد رثاه بقصيدة مطلعها :

أيوب ! يا أيوب ! يا أيوب ! أودى به قدر الردى المجلوب

أما كتبه فقد ذكرنا أكثرها فيما سبق ونلخصها من جديد فيما يلى: ـ

١ ـ تفسير القرآن الكريم فى سبعين جزءاً .

٢ ـ الدليل والبرهان فى ثلاثة أجزاء .

٣ ـ العدل والإنصاف فى ثلاثة أجزاء

٤ ـ مرج البحرين .

٥ ـ فتوح المغرب .

٦ ـ ترتيب مسند الإمام الربيع بن حبيب .

٧ ـ رسالة فى رجال كتاب المسند .

٨ ـ ترجمة رجال الإباضية ذكرها أبو إسحاق طفيش فى « الدماية إلى سبيل المؤمنين » .

٩ ـ كتاب فى الفقه لم نعرف عنه شيئاً .

١٠ـ أجوبة كثيرة لو جمعت لكونت مجلداً ضخماً .

وقد قام بعدد من الرحلات للدراسات العلمية ولدراسة النفس البشرية ولدراسة المجتمعات الإنسانية وتتلخص رحلاته فيما يلى : ـ

١ ـ رحلته فى شبابه إلى الأندلس لاستكمال معلوماته .

٢ ـ رحلته إلى عواصم الشرق لاستكمال الدراستين العلمية والاجتماعية .

٣ ـ رحلته إلى أداء الفريضة .

٤ ـ رحلته إلى الجنوب وتوغله فى إفريقيا واقترابه من خط الاستواء واكتشافه لتساوى الليل والنهار . ودراسته للمجتمعات البشرية المختلفة .

وقد كانت له نظريات خاصة وآراء أشار إليها أستاذنا الشيخ أبو اليقظان فمن أرادها فعليه برسالة ( تراجم الأئمة ) وقد تتاح الفرصة لدار الدعوة فتنشر منها ترجمة أبى يعقوب مفصلة كما وردت عن الشيخ .

والواقع أن أبا يعقوب يحتاج إلى دراسة كاملة متخصصة يقوم بها بعض الشباب وفى إمكان أحدهم أن يقدم أطروحة للماجستير أو رسالة للدكتوراة فى هذا الموضوع القيم .

# أبو مهدى بن إسماعيل[1]

يسرنى أن أنقل إلى القارىء الكريم ترجمة أبى مهدى بنصها الحرفى من ( تراجم الأئمة ) لشيخنا أبى اليقظان رحمه الله .

قال : هو العلامة الورع الشيخ أبو مهدى عيسى بن إسماعيل المليكى الذى كان على المذهب المالكى وتمذهب بالمذهب الإباضى وهو من عرش أولاد نائل . أخذ العلم عن الشيخ عمى سعيد بن على الجربى ، وأخذ عنه الرحالة الشيخ محمد بن زكرياء البارونى الذى حرر مسند الدين ترجال الإباضية منه إلى اليوم المحفوظ نص عليه سير المشائخ للبدر الشماخى فى صفحة ٥٧١ هـ ، وذكر فيه أنه كان فى مصعب ، وادى ميزاب فى عام ٩٦١ ، وأنه أخذ العلم هناك عن الشيخ أبى مهدى عيسى بن إسماعيل المليكى .

وللشيخ أبى مهدى عيسى شعر رائق رأيت له أرجوزة رائعة فى الوعظ والزهد هذا مطلعها :

الحمد لله الذى هدانى  لدينه فضلا من الرحمن

وقد ربعها الشيخ عمر بن عيسى القندهيرتى النفوسى ويأتى ذكره فى محله إن شاء الله ، كما رأيت له رسالة يدافع فيها عن زميله الشيخ سليمان عبد الله المرزوق الذى اعتنق مثله المذهب الإباضى يرد فيها بالنقد البرىء عن بعض المشاغبين إذ كتب له رسالة عنيفة يقول له فيها : إذا أجبتنى فسأحرق

---

(١) من علماء القرن العاشر ، ذكره البارونى فى الطبقة التاسعة عشر .

رسالتك . وكان من حذق الشيخ المرزوقى أن أجابه فى رسالته نفسها بين أسطرها ، وقال : لأن أحرق الرسالة فإنه يحرق رسالته مع الجواب أيضاً ، ولكن لم تصله الرسالة فى المغرب إلا وقد توفى .

وكانت رسائل الشيخين فى عام ٩٢٩ هـ . وتوفى الشيخ أبو مهدى رحمه الله فى ( ١١ ذى القعدة من عام ٩٧١ هـ ) .

وإليه تنسب المقبرة المعروفة باسمه فى مليكة ( مقبرة الشيخ سيدى عيسى ) نسبة لأعظم دفينها وقد علقت عليها أوقاف كثيرة فى البلد وكانت روضته هذه مقر العزابة عند انعقاد مجلسهم الرسمى للقصور السبع حديثاً .

ويقال إنه كان له ولشيخه عمى سعيد بن على ربوة مشرفة على الوادى من غرب مليكة يجلسان عليها ويتذاكران فى مسائل العلم والمعرفة وصادف أن واحداً منهما طبخ له رأساً فقال فى نفسه أهدى من هذا لأخى فكّى الرأس وهما أحسن ما فى الرأس ولما قدّم الهدية إلى صاحبه قدّم إليه أخوه نفس الهدية لنفس النية لطيب سريرتهما . وصفاء إخوتهما فى الله تعالى ولها نظير فى جبل العباد بوارجلان . وهكذا فلتكن الأخوة فى الله والصفاء بين الأصدقاء .

وشهر مكان الربوة فى مشاهد الزيارة[1] بوادى ميزاب بمشهد ( أجاين ) أى أخدود الرأس بلغتنا .

قلت: يستفاد مما نقلناه من الوثائق التاريخية أن حياة عمى سعيد فى وادى ميزاب كانت فى الخمسين الثانية من القرن العاشر كحياة معاصره تلميذه الشيخ أبى مهدى عيسى كما علمت .

---

(١) حفلة يوم الزيارة فى قرى وادى ميزاب تقع فى أول الاثنين من مارس من كل سنة ، يزور فيها الطلبة مشاهير الصالحين من السلف حول القرى إحياء لذكراهم فى قلوب الخلف من أبنائهم وتجديداً للعهد والوفاء لهم فى مآثرهم . أبو اليقظان .

لـكن ما جرى عليه الأب داوود القسيس الفرنسى يغاير هذا فقد وقفنا على فهرسته لمشايخ غارداية وهذا نص محل الحاجة منها قال :

« وفد من جربة الشيخ عمى سعيد بن على بن حميدة بن عبد الرزاق ابن سعيد الخيرى فى عام ٨٥٤ هـ ـ ١٤٥٠ م وأسس المجلس الذى يحمل اسمه فى ٣ شوال ٨٥٥ هـ ـ ١٧ فيرى ١٤٥٣ م وتوفى الشيخ عمى سعيد بن على فى محرم ٨٩٨ هـ ـ ٣ جانفى ١٤٩٢م ، ففى نظر الأب داوود كانت حياة عمى سعيد فى القرن التاسع ، وفى نظرنا كانت فى القرن العاشر ولسنا ندرى كيف يكون الجمع بين الروايتين إذا صحتا. ولو لم ينص الأب داوود عن وفاة الشيخ لأمكن لنا القول بأنه عمّر فى القرنين التاسع والعاشر ، ولعلنا نقف على ما يجلو الحقيقة بعد .

# ابو احمد اليزقنى[1]

نص حرفى من رسالة ( تراجم الأئمة ) لشيخنا أبى اليقظان رحمه الله :

هو الشيخ أبو محمد بن عبد العزيز . كان علامة زمانه ، ومرجع الفتوى فى وادى ميزاب ذا علم واسع ، وحلم وورع وتقوى ، أمضى عمره فى نشر العلم وخدمة الدين والنصح والإرشاد وجدّ وكدّ ، فى وقت أشرف الإسلام على الانقراض فى البلاد ، فجدد شبابه رحمه الله وخلف خمسة أبناء نجباء كان بهم حياة الدين ، وكفاه فخراً أن كان من نسله صاحب النبل الشيخ عبد العزيز التميمى ، ومن نسله قطب الأئمة الشيخ طفيش وغيرهما رحمهم الله ، ونسبه مرفوع إلى نسب عمر بن الخطاب من بنى عدى وهو معاصر للشيخ أبى مهدى عيسى ابن إسماعيل ، وكان من جملة تلامذته ويقال إنه إذا ذهب إلى شيخه بمليكة يذهب راكباً على حصان له فقال فيه بعض حساده فى ذلك . فحكى إلى الشيخ قولتهم . فقال له :

إذا لم يسرهم ذلك فاركب إلىّ على واحد وقد معك آخر .

وهو جد العرش الكبير آل باحمد الشهير فى يزقن وإليه تنسب مقبرة الشيخ باحمد التى فى سفح جبل الشيخ بوعميد المشرف على الجبل .

وقد علق عليها آل باحمد أوقافاً كثيرة غزيرة تنفذ فى بعض أيام جمعات الشتاء ، عند تلاوة القرآن فيها ، وتوزع مع الصدقات على الفقراء والمساكين - بها .

---

(١) من علماء القرن العاشر ، معاصر لأبى مهدى .

# أحمد بن أفلح[1]

يسرنى أن أنقل هذه الترجمة بنصها الحرفى من ( رسالة تراجم الأئمة ) لشيخنا أبى اليقظان إبراهيم رحمه الله قال :

أولا : أما الشيخ الحاج أحمد بن أفلح الورجلانى فقد قال عنه الشيخ أعزام الحاج إبراهيم بن صالح فى كتابه غصن البان فى تاريخ وارجلان ما يأتى: وهذا نصه قال: ( نكتة طريفة وكالة الجامع الكبير ـ لا لله عزة ـ كانت مختصة بأولاد أفلح وبلغت هذه الوظيفة بأيدى اثنى عشر نفراً آخرهم الشيخ بأحمد بن محمد بن أفلح دفين مقبرة أولاد أفلح التى على طريق إدارة الحكومة والمذكور بلغت وكالته إلى سنة ١١٤٩ هـ .

هو شيخ الإباضية ، ورئيسهم وقتئذ الشيخ أبو زيان بن عبد العزيز دفين مقبرة أولاد عبد العزيز ، ومكث فيها ما شاء الله ، وفى العام الأخير اجتمعت العزابة واتفقوا على أن يبحثوا عن مال المسجد وما آل إليه أمره، فامتنع الوكيل عن ذلك وقال لهم : اتركوا الأمر فى ستر الله فأرغموه بذلك وفى مقدمتهم أبو زيان فأخذ بخاطرهم وأتى بمصابيح الدار وتأبط زمام ـ سجل الحسابات ـ الجامع فلما دخلوا الدار وهم عشرون عزابياً وجدوا مئونة قوية وأشياء لم تكن بالحسبان ومن جملتها ١٣ إبريقاً خزفاً مملوءة دنانير فلما رأوا ذلك استعظموه ودعوا له بالخير .

وفى أثناء ذلك وضع الزمام فى مكان يرونه وخرج هارباً على حين غفلة

---

(١) من علماء القرن الثانى عشر من الطبقة الثالثة والعشرين .

منهم . فلما أرادوا الخروج نادوه فلم يجدوه فأخذ الشيخ أبو زيان المفاتيح وأغلق الأبواب وأمسكها عنده وفى الحين وقع الخلاف على إمساك المفاتيح بين إباضية بنى سيسن وإباضية بنى وكين. فاستدعاه أبو زيان وكلمه فى شأن إمساك المفاتيح إطفاء للفتنة ورغبة فى ذلك فأجابه :

بأن صدرت منه أيمان مغلظة ألا يمسكها ولكن اجعلوا واحداً من بنى وكين وواحداً من بنى سيسن ليزول الخلاف والشقاق فقاموا على رأيه وانحسم الشقاق وجرى الأمر على ذلك إلى يومنا هذا . فهى — أى الوكالة — بين بنى وكين وبنى سيسن وما عند الله خير وأبقى .

## باسة بن موسى[1]

يسرنى أن أنقل هذه الترجمة بنصها الحرفى من رسالة ( تراجم الأئمة ) لشيخنا أبى اليقظان إبراهيم رحمه الله :

هو الشيخ باسة بن موسى رحمه الله من العلماء العاملين والصلحاء المرشدين ، أخذ العلم عن شيخه الحاج محمد بن أبى القاسم المصعبى وله مهارة كبيرة فى الكتابة لا يضجر ولا يمل منها، وقد رأيت كتباً كثيرة وأجوبة جمة بخط يده .

تولى رئاسة الحلقة بوارجلان فسار فيهم سيرة مستقيمة تركت له فى تاريخه الذكر الجميل وتوفى رحمه الله سنة ١١٧٦ وترك خزانة كبيرة مملوءة بالمجلدات القيمة بخط يده . وبترك حفيده طريقته العلمية تلاشت ولم يبق منها إلا شىء قليل . قال الناقل من أعزام أبو اليقظان إبراهيم قد عثرنا على رسالة له وجهها إلى إخوانه من بنى مصعب وهم بجربة يزاولون دروسهم قال ما نصه:ـ

« إخواننا .. الله الله فى زيادة العلم ليلا ونهاراً مساءاً وصباحاً . لأن العلم كاد أن ينقرض من بلدانكم ، ولأن الجهل مطية من ركبها ذل، ومن صاحبها ضل .

إخواننا.. الله الله تعلموا العلم فإنه يصلح حالكم ويرغم شانئيكم، ـ وتعلموا العلم فإنه عز لا يبلى جديده ، وكنز لا يفنى مزيده ، وتعلموا العلم لأنه أفضل

---

(١) من علماء القرن الثانى عشر من الطبقة الرابعة والعشرين .

خلق ، والعمل به أكرم شرف ، فعسى أن تحيوا لنا ما اندرس من العلوم وأن تقوّموا ما انطمس من الرسوم .

إخواننا .. عليكم بتقوى الله والورع عن محارم الله، يقول الله : ﴿ **واتقوا الله ويعلمكم الله** ﴾[1] ، لأن قليلا من العلم مع العمل يكفى وكثيراً من العلم بلا ورع يعمى.

إخواننا..اعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا وكونوا عباد الله إخواناً ولا تشتتوا .

إخواننا .. عليكم فى السعى فى المهمات والرغبة فى جمع الخيرات تنجوا من شدة العذاب يوم الفصل فى الحساب . فإذا سعيتم جهدكم فيما ذكرنا جزاكم الله ربكم بالجنات مع الخيرات الحسان ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون** ﴾[2] . وبلغوا مجموع المشائخ سلامنا » إلخ .

ومن حسن الحظ أن وقعت على أوراق متناثرة هى مما بقى من خزانة الشيخ باسة بن موسى بن داوود وقد سلمت لم تأكلها الأرضة من كتبه ومخطوطاته النفيسة .

وفى الأوراق رسالة للشيخ باسة وجهها إلى إخوانه فى الله هو وعلماء وتلاميذ معه وهم من أهل وادى ميزاب وهو يقرأ هناك وجهها إلى إخوانه بجربة من علماء وتلاميذ وهم يقرأون بجربة ورد فيها ذكر عدة علماء وتلاميذ فى ذلك العهد وقد عنون رسالته بعد البسملة بقوله :

---

(١) البقرة : ٢٨٢ (٢) البقرة : ٢٥

« هذه الرسالة أرسلها الناسخ باسة بن موسى بن الحاج داوود إلى إخوانه من بنى مصعب كانوا يكرعون فى جزيرة جربة ـ وهو إذ ذاك كان يقرأ فى ميزاب ـ رحم الله الجميع بجاه النبى الشفيع » .

وقد صدر رسالة بالشيخ سعيد بن على الجادوى ـ من لسانه ولسان العلماء الذين معه بميزاب منهم شيخه الشيخ محمد بن أبى القاسم ومنهم الشيخ إبراهيم بن أحمد ومنهم الشيخ أحمد بن أيوب ومنهم الشيخ الحاج نوح ابن أيوب ومنهم الشيخ صالح بن الحاج ابراهيم من مشائخه وقد رثاه بقصيدة ومنهم باعمور بن الحجاج .

قال فى أول الرسالة هكذا بالنص :

« الحمد الله الذى خلق الموت والحياة . . . إلخ » وقد أطال فى مقدمتها وكان كل واحد من المشائخ الموما إليهم مقروناً بأوصاف عظيمة عالية تدل على منزلته السامية فى العلم والورع والدين والخلق الكريم والكاتب يعيش فى أواخر القرن الثانى عشر توفى رحمه الله فى عام ١١٧٩ الأمر الذى يدل على ازدهار العلم وترابط العلماء بعضهم ببعض رغم ترادف الفتن وتتابع المحن، وقد تركنا تلك الأوصاف وتلك المقدمة خوف الملل والإطالة على القارىء .

وقد سجل فى الرسالة أجوبة بعض أولئك العلماء عن مسائل فقهية وأحكام شرعية أرسلها الشيخ نوح بن أيوب يسأل فيها العلامة الشيخ محمد ابن أبى القاسم تدل أجوبته على تطلعه فى الفقه وعلوم الشريعة رحمهم الله ورضى عنهم .